روايات مصرية للجيب

أسطورة حارس الكهف

ما وراء الطبيعة

٧

TELEGRAM
NETWORK

المقدمة

لقد انصرفوا أخيرًا..!! والآن أستطيع أن أغلق باب مكتبي علي.. وأجلس في ضوء الأباجورة الخافت أحسو الشاي وأكتب لكم قصة جديدة..

هل تذكرونني؟.. إنني أنا الدكتور (رفعت إسماعيل)، الشيخ المتهالك الذي عاش وحيدًا ويموت وحيدًا في مساء ما.. أنا صائد الأشباح الهاوي.. متعقب الأساطير

٧

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة حارس الكهف

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة

لا تشوبه شبهة الترجمة أو

الاقتباس

●

بريشة

الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف

الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٠، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة – ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسى مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤ – ٥٩٠٨٤٥٥ – ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.

4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

٧

أسطورة حارس الكهف

بقلم :

د . أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

روايات مصرية للجيب

أسطورة حارس الكهف

حيث كانت..، أنا الذي صارع المذءوبين، وطارده (الزومبي)، وأمسك برأس (ميدوسا) و... و....

تسألونني من هم أولئك الذين انصرفوا..؟!

كلا يا رفاق!.. لقد كانت زلة قلم.. لنقل إنني أرغب في الاحتفاظ بهذا السر في الوقت الحالي.. أو - حتى لا أثير فضولكم أكثر - لنقل إنه لم يكن عندي أحد!.. اتفقنا؟..

ربما أصارحكم بالمزيد يومًا.. ربما بعد أن أحكي لكم مغامرتي الثلاثين أو الأربعين أو المائة.. أما أن أحكيها الآن.. فمستحيل!.. دعونا من هذا ولنعد لموضوعنا..

هل أحكى لكم اليوم قصتي مع د. (لوسيفر)؟ ام قصتي مع (براكسا) فتاة المقابر؟ أم قصتي مع (المزبيرة)؟!.. لا.. لا داعي، لأن هذه القصص لا تناسب حالتي النفسية اليوم..

سأحكي لكم قصتي مع حارس الكهف..

متى حدثت بالضبط؟.. لا أذكر في الواقع.. لا شك أنها - على الأقل - قد حدثت بعد لقائي في اليونان مع رأس (ميدوسا).. وبالتأكيد قبل تعرضي للعنة الفراعنة..

إنها قصة شنيعة.. لكنكم سعداء الحظ لأنكم تقرؤون هذه الأحداث ولم تعيشوها.. وإنني لأحسدكم حقًا!..

هل استعددتم؟.. هل أصدقاؤكم حولكم والأنوار مضاءة؟..
إذن أصغوا إلي..

* * *

١ - إنه قادم!

حين لمحنا آثار الأقدام المخلبية مرسومة فوق الرمال الرطبة.. وحين رأينا خيط الدم الذي لم يجف بعد يتلوى فوق الأرض، راسمًا رقصة الموت المجنونة.. وحين

لمحنا السترة الممزقة، وكأنما فر من داخلها جيش من الشياطين..

وحين لمحنا الحيرة والهلع في عيني البروفسير (باولو)..

عندئذ - وعندئذ فقط - فهمنا أن حارس الكهف حقيقة.. وأنه حر طليق.. وأنه يريدنا...

* * *

شرع رجال (التبو) يتهامسون ويتبادلون الكلام بلهجتهم التي لا أفهم منها حرفًا.. إلا أن كلمة أو اثنتين وصلنا لمسامعنا:

- العساس!.. العساس!

قال لي البروفسير (باولو) في حيرة:

- ما معنى هذه الكلمة؟..

- إنها تعني (الحارس).. وهي كلمة عربية فصحى..
- إذن هم أيضا يفكرون فيما نفكر فيه..
أشعلت سيجارة ثالثة، ونفثت دخانها في الهواء.. وقلت:
- لا توجد طريقة أخرى للتفكير على ما أظن..
وشرعت أعابث الرمال بطرف حذائي.. كان الحر خانقًا.. وذباب الصحراء المسعور يحاول التهام وجهي.. والعرق يغمر ما تحت إبطي، لكني كنت غافلًا عن كل ذلك..
لو أن (العساس) موجود حقًا في هذه الصحراء.. لو أنه موجود حقًا في هذا العالم.. فلن تكون أمامنا فرصة للنجاة..

ولكن الأمر لم ينته بعد.. يجب أن نجد جثة (أحمد) أو جسده الجريح، ثم نبني خططنا على هذا الأساس..

وكان الرجال قد اتخذوا نفس القرار..

* * *

في المساء جاءوا به والقمر يفصح عن وجهه خلف الجبال..

كنت جالسًا جوار النار أنا والبروفسير، حين لمحنا الرجال عائدين في مسيرة صامتة كئيبة، متسربلين بلون الغروب الأرجواني.. ملثمين كما هم دائمًا، لكن عيونهم تنطق بالخطر والتوتر...

وعلى الرمال ألقوا الجثمان، ووقفوا يتبادلون النظرات..

نهضت - في توجس - إلى الجثة، وشرعت أتفحصها.. وتحرك البروفسير واقفًا جواري.. وسمعت شهقته.. ثم أنه يهرع مبتعدًا..

قال لي (محمود) وهو يبعد عينيه قدر الإمكان:

- ما رأيك؟

- كما ترى..

- إذن هي ليست الذئاب؟

طلبت منه أن يشعل سيجارة ويدسها في فمي.. سيجارتي المائة في هذا اليوم الشنيع.. السعال يتحشرج في صدري، وحنجرتي تتقلص، لكني لم أكن أدرك شيئًا عن هذا الذي أفعله..

- كح كح!.. بالطبع ليست الذئاب.. كح!.. لم يخلق بعد هذا الذئب الذي... كح!!

مد يدًا مرتجفة وأخرج السيجارة من فمي، لأستطيع الكلام بوضوح.. فقلت مردفًا:

-.. لا يوجد ذئب يهشم عنق الضحية، ويديره في الاتجاه العكسي..

ولا يوجد ذئب يمتص دماء الضحية.. وأبدًا لم يوجد ذئب يترك آثار أقدام مخلبية عملاقة على الرمال..!.

اقترب منا البروفسير متسائلًا.. فنقلت له ما قلت بالإنجليزية.. أما (محمود) فقال له بضع عبارات بالإيطالية جعلت لونه يمتقع..

إن حارس الكهف يريدنا..

لقد أثرنا غضبه.. أيقظنا العملاق النائم... وعلينا أن ندفع الثمن..!

* * *

اقترب منا (كريم) زعيم هذه المجموعة.. وعيناه خلف اللثام تلتمعان بإصرار وغضب لا يوصفان:

- سيدي.. يجب أن نعود..!

وعلى الفور دوى صوت (محمود) مترجمًا بالإيطالية ما قاله الرجل الملثم.. الذي أردف:

- إن (العساس) قد تحرك.. وآباؤنا جميعًا قد حكوا لنا معنى ذلك لهذا لن ننام.. ولن نستريح حتى نأمن في ديارنا...

الترجمة تتواصل، ووجه البروفسير الخامل يتبدل في ضوء اللهب المتراقص.. الغضب يلتمع في عينيه.. ثم يصرخ.. و(محمود) يترجم هذا الصراخ إلى عبارات عربية حاول أن يجعلها غاضبة:

- لكنكم تلقيتم أجركم مقدمًا!

في برود قال (كريم):

- تلقينا أجر إرشادكم إلى الكهوف، ولم نتقاض أجر إدخالكم فيها بعد.. وعلى كل حال نحن لا نريد شيئًا سوى أن نعود لأطفالنا..

وندعوكم للعودة معنا قبل أن يغدو ذلك متعذرًا..

- هذه الصفقة ليست أمينة!

تحسست يدا (كريم) البندقية.. وازداد غضبًا:

- إن الجحيم نفسه يشمئز من خائن الأمانة.. هذا هو شعارنا نحن الطوارق..

إن هذا المخبول - البروفسير - قد داس على الوتر الحساس لهؤلاء الرجال بغضبته الإيطالية، التي لا تعرف حدودًا (كعادة أهل بلده).. ومن الواضح أن هؤلاء (التبو) المهذبين الصموتين سيفجرون رؤوسنا ببنادقهم، إذا ما استفززناهم أكثر من ذلك..

- بروفسير.. أرجوك.. يكفي هذا..

قلتها وأشعلت سيجارة.. وشرعت أسعل:

- كح!.. دعهم يذهبون.. كح!.. ولنذهب معهم!.. لقد شاهدنا كل ما ينبغي أن..

كح!.. نشاهده.. والأعصاب متوترة، فلا تزد الموقف تعقيدًا.. كح!

تحول حنقه تجاهي.. وهتف:

- أنت ومدخنتك!.. لقد سئمت تراخيك وجبنك ورائحة سجائرك..!.. أطفئ هذه السيجارة وإلا فلن يجد هذا الوحش شيئًا يقتله..، وإذا شئت أن تتبع هؤلاء التبو فافعل.. لن ألومك على شيء.. ها!.. اذهب... أذهب!..

كدت أرد عليه صارخًا بما يتناسب مع وقاحته.. إلا أنني أدركت أن هناك نوعا من الكهرباء في الجو تجعل الجميع يصرخون، فلا داعي لأن أزيد هذا التوتر بشرارة إضافية..

ودون كلمة أخرى أدرت ظهري متأبطًا ذراع (كريم)...

صاح البروفسير في دهشة:

- إلى أين تظن أنك ذاهب؟

- يا له من سؤال!.. أنفذ أوامرك طبعًا..

وأمام نظراته المذهولة بدأ (التبو) يركبون جمالهم.. وتعالت أصوات هذه الحيوانات المرعبة، وهي تنتصب على أقدامها.. أحدها وضعوا عليه جثة (أحمد) المشوهة.. أما أنا فاتجهت إلى جملي واعتليت ظهره.. ها هو ذا الكابوس يبدأ حين ينهض هذا المخلوق.. ويقذفني للأمام.. ثم للخلف.. ثم للأمام.. ثم يستقر على أقدامه.. ويبدأ السير في تؤدة خلف

القافلة..، كانوا قد دفنوا الجثة ولم يعد هناك ما يدعوهم للبقاء..

- جبناء!

دوت صرخة البروفسير حيث تركناه هو و(محمود) واقفًا يرمقنا في ذهول..، كانا واقفين وحيدين جوار النار غارقين في ضوئها الذهبي المتراقص.. والصحراء المظلمة الساكنة تمتد حولهما تمتد حولهما إلى ما لا نهاية...

وأنا أبتعد.. أبتعد.. أبتعد مع القافلة..

حتى لم أعد أرى أثرًا لهما..

* * *

لمدة عشر دقائق كاملة لم تفارق ذهني صورتهما واقفين وحيدين في الصحراء،

ينتظران مصيرهما الغامض.. وأدركت أن هذا المشهد سيؤرق نومي لعدة سنوات قادمة..

لقد اتفقنا على كل شيء.. ولم يجد جديد.. فلماذا أنسحب؟..

بدأ التردد يزحف على تصميمي.. والندم يغسل آثار غضبي.. لهذا - ودون كلمة - أدرت مقود جملي عائدًا إليهما..

لم يحاول واحد من الرجال أن يمنعني أو يقنعني.. بل إنهم لم ينظروا نحوي أساسًا..، إن هؤلاء القوم يؤمنون تمامًا أن الإنسان هو سيد مصيره، وأن القدر لا يتبدل..

وهكذا.. شرع الجمل يمشي الهوينى عائدًا إلى مكان المعسكر، حيث النار تلقي

بضوئها فوق الرمال..
سأخوض المغامرة بكاملها معهما.. وحين تنتهي، لن يكون علينا سوى أن نمضي بجمالنا إلى أحد طرق القوافل، التي صرنا نعرفها الآن تمامًا.. ومعنا ما يكفي من الطعام والماء.. معنا أسلحتنا وذخائرنا..
فأي خطر هناك؟!..
هكذا قلت لنفسي وأنا أرمق الصحراء المظلمة من فوق جملي.. وكما توقعتم.. كنت ساذجًا.. ساذجًا إلى حد لا يصدق!
هل توجد سذاجة أكثر من أن أترك مكاني الآمن بين هؤلاء الرجال الأشداء، وأعود وحيدًا عبر الرمال إلى الكابوس الذي ينتظرني؟

هل توجد سذاجة أكثر من أن أشعر بشعر الجمل ينتصب على مؤخرة عنقه.. وحركاته تزداد عصبية وبرغم هذا استمر؟!

هل توجد سذاجة أفظع من أن تنطفئ النار البعيدة فجأة، وأسمع صوت صرخة شنيعة لإنسان يمزق حيًا، وبرغم هذا أطمئن نفسي بأنها الرياح!!..

هل توجد سذاجة أشنع من أن تصرخ بي حاستي السادسة: عُد.. عُد.. أرجوك أن تعود!، ثم أعزو كل هذا إلى جبني الطبيعي؟!

* * *

على أنني حين وصلت لمكان المعسكر لم أجد أحدًا..!

فقط النار الخامدة ترسل دخانًا رماديًا لعنان السماء.. وأسلحة مبعثرة ألمحها في ضوء القمر الشاحب..

وعلى الرمال آثار أقدام هنا وهناك، تشي بشيء غير عادي.. شيء مرعب قد حدث منذ دقائق.. يجب أن أنزل من على متن الجمل لأرى ما هنالك...

حين وصلت لمكان المعسكر لم أجد أحدًا .. ! فقط النار الخامدة

ترسل دخانًا رماديًا لعنان السماء ..

ولكن... ثمة مشكلة صغيرة.. ا

أنا لا أستطيع أن أنيخ جملًا!.. لابد لأحدهم أن يفعل هذا الى وإلا قضيت باقي حياتي في نفس المكان!، والمشكلة الأسوأ هي أنني لو وثبت من فوقه سأهشم ساقي حتمًا.. وحتى لو لم يحدث ذلك فكيف أعود إلى ظهره إذا أردت الرحيل؟!..

إذن لم يبق أمامي سوى أن أنادى بأعلى صوتي:

- محموووود!

لا رد....

- بروفسير بااااولوووو!

أين ذهب هذان الأحمقان؟.. ومن الذي أطفأ النار؟.. ومن الذي صرخ..؟
أشعلت سيجارة أخرى شاعرًا بالامتنان لعبقريتي، التي جعلتني أخذ معي كل هذه السجائر قبل القيام بالرحلة.. لقد حدث شيء ما لكنني لا أصدق أن يكون شيئًا سيئًا.. إن الأشياء السيئة لا تحدث بهذه السرعة، وبمجرد أن أدار (التبو) ظهورهم..
إذن على أن أجدهما.. أو أهرع للحاق بالرجال قبل أن أفقد أثرهم.... إن المزيد من الصراخ لن يضر أحدًا:
- محموووووود!...
اسمعكم تقولون لي: لا تصرخ!.. لا تدعه يسمعك..!..، هذا صواب ولكني - كما قلت

لكم - لم أكن أتوقع شرًا.. كيف لي أن أعلم أن هذا الصراخ سيجعله يسمعني؟ أو أن رائحة التبغ ستجعله يشم رائحتي؟ أو أن توتر عضلات الجمل من تحتي، لا يعني سوى شيء واحد..؟

أنه هو..!...

ها هو ذا قادم من أجلي.. خارجًا من أعماق الجحيم، متدثرًا بالظلام وضوء القمر الفضي..

العساس...!

*   *   *

٢ - القارة المفقودة..

ولكن دعونا من كل هذا الهراء..

لماذا أضيع وقتي ووقتكم بالثرثرة في مواضيع لا تهم سواي، في حين كنت أنوي أن أبدأ قصتي بالحديث عن رحلتي إلى (ليبيا)؟!..

كما قلت لكم لا أذكر العام...

لا أذكر العام.. ولا سبب الزيارة.. لا بد أنها كانت مهمة علمية ما، ولابد أنني كنت عائدًا لتوي من (اليونان)، بعد قصتي المؤسفة مع رأس (ميدوسا) حين حدثت هذه القصة.. و

إنني حتى لا أذكر اسم الفندق..

لكنه كان فندقًا مريحًا في (طرابلس).. قضيت فيه أسبوعين، بعد أن انتهت مهمتي هنالك..

وكالعادة - كما يحدث في قصص (رايدار هجارد) - بدأت القصة في قاعة التدخين!.. أعني بالطبع استراحة الفندق..

كنت قد تعرفت على مهندس ليبي اسمه (محمود) كان قد عاد لتوه من رحلة دراسة في (إيطاليا).. ولقد أثارت دهشتي تلك السرعة التي التأم بها الجرح الدامي، الذي تركه الإيطاليون في (ليبيا) وشعبها الطيب، بعد احتلال بدأ من عام ١٩١١ وارتكبت فيه أفظع الفظائع..

- كان جنرالهم السفاح (جراتزياني) - قال لي (محمود).-يربط أهل (فزان) بحبل

طويل بعضهم إلى البعض، ثم يرمي بهم من الطائرة!

- يا للهول!!

وشعرت بقشعريرة تغزو عمود الفقري.. هل الإنسان حقًا متوحش إلى هذا الحد؟.. إن الذي كان يقترف هذا، هو لابد بشري مثلنا، له زوجة وأطفال.. ويصاب بالصداع والإسهال.. ويحب الفاكهة وليالي الصيف.. فما الذي يحدث له كي يغدو سفاحًا..؟

- إنها الفاشية والعنصرية.. تحيلان الإنسان إلى سفاح يرتوي بالدماء.. أي إنسان..

قالها (محمود)، وهو يمرر يده على شعره الأشعث المميز لكل أبناء المغرب

العربي.. الوجه الأسمر النحيل الحزين.. والشعر الثائر غير المصفف بعناية، والعينان الحساستان إلى أقصى حد.. كان شديد الذكاء.. ولقد قال لي في مرارة:

- نحن بحاجة إلى العلم.. وهؤلاء الناس يملكون العلم.. لهذا قهرونا وعذبونا.. أما اليوم فإن مهمتنا المقدسة، هي أن نتعلم منهم كل شيء.. كل ما يعرفون..، ولهذا لم أجد غضاضة في أن أذهب إلى (إيطاليا) كي أتعلم..

ابتسمت مؤيدًا كلامه.. أنا نفسي درست في (انجلترا) التي احتلت وطني سبعين عامًا.. ومثله لم أجد غضاضة في ذلك..

- أعتقد أن غزاة كثيرين توقفوا عندكم..

نفث دخان سيجارته.. وابتسم:

- كثيرون.... قديمًا احتلنا البربر قادمين من إسبانيا - ونسميهم (الفاندال) - ثم جاء الرومان.. وفي القرن السادس عشر، جاء الأتراك الذين ظلوا يحكموننا بأسرة باشوات (القرمنلي) الشهيرة.. ثم جاء الإيطاليون بحكمهم المشئوم.. كل هؤلاء جاءوا.. وكلهم ذهبوا..

ثم ضيق عينيه وابتسم في خبث:

- وأحيانًا يقال إن هناك غزاة آخرين لا تعرفهم

- ماذا تعني؟

- لا شيء.. مجرد تكهنات وأحاديث علماء غير مجربين..

- لكنك - حقًا - قد أثرت فضولي..

قال وهو يطفئ سيجارته في شيء من العصبية:

- د. (رفعت).. أنت رجل مثقف كثير الأسفار.. فلا تقل إنك لم تسمع عن تلك الهضبة.

- أية هضبة؟

قال بصوت عال نافد الصبر:.

- هضبة (تسيلي) طبعًا!

* * *

على المائدة المجاورة، كان هناك رجل يرمقنا في اهتمام.. رجل في الستين من عمره، من الواضح أنه أجنبي.. وكان دقيق الملامح والأطراف إلى حد غير عادي، كأنه دمية متقنة الصنع.. أما وجهه

الخامل الخالي من التجاعيد، فكان يحمل عينين زرقاوين متسعتين فيهما شيء من الخبال..

هذا الرجل عالم.. هكذا قلت لنفسي على سبيل الفراسة، ولم أكن بعيدًا عن الصواب.. هذا الرجل عالم، وقد استرعت انتباهه كلمة (تسيلي)، وهو حتما سيحاول التعرف علينا ليفضي إلينا بأسرار مروعة عن هذه الهضبة، تضيف كابوسًا جديدًا إلى كوابيسي..!

هكذا توقعت.. ولقد نفذ الرجل هذا (السيناريو) حرفيًا..!

ها هو ذا ينهض..!.. ها هو ذا يقترب.. الوغد!.. إنه ينحني ويتحدث بالإيطالية فيرد عليه (محمود)، داعيًا إياه كي

يجلس.. يجذب الرجل كرسيًا.. وفي مرح يفرك يديه.. ثم يقول بالإنجليزية:

- لقد طلب مني السيد أن أتحدث بالإنجليزية التي يفهمها ثلاثتنا.. وإنه ليشرفني أن أتعرف على سيدين مهذبين مثلكما..

كانت إنجليزيته مضحكة كأكثر الإيطاليين..

- اسمي هو (باولو جيرالدي).. البروفسير (باولو جيرالدي).. أستاذ التاريخ القديم بالجامعة.. ولقد سمحت لنفسي أن أصغي السمع إلى محادثتكما، التي لم أفهم منها كلمة واحدة بطبيعة الحال، سوى (تسيلي).. ومن المدهش أن نفكر في نفس الشيء في نفس اللحظة..

حين انتهى من كلامه، كانت قطرات العرق تغمر جبينه.. واللعاب يتناثر من شفتيه.. مخبول حقيقي لكنه لن يفسد أمسيتي..

- للأسف إنني لا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع فأنا مصري..

- آه!.. لكنكم تتشابهون تمامًا معشر العرب.. تتشابهون تمامًا..

ثم إنه استدعى النادل وطلب منه أن يحضر لنا ثلاثة أكواب من عصير البرتقال المثلج، وشرع يثرثر دونما تحفظ:

- إن هذه الهضبة التي تقع ما بين (ليبيا) و(الجزائر)، لتحوى لغزًا من أكثر ألغاز البشرية غموضًا.. وقد قيل إنها هي الدليل

الذي لا يدحض على وجود حياة فوق الكواكب الأخرى..
بدأت أتحفز في جلستي.. إن الحديث يأخذ صبغة تثير اهتمامي إلى حد كبير، خاصة وأنني أجهل كل شيء عن هذا الموضوع...
قال (محمود) وهو يرشف من كوبه أول رشفة:
- ربما قيل هذا.. لكن الاعتقاد الأعم هو أن هذه الهضبة تخفي تحتها قارة (أطلنطس)!!
وثبت في ذهول مستندا بذراعي إلى المائدة:
- (أطلنطس)؟.. هل تمزح؟..
- لا مجال لذاك..

- لكن (هيرودوت)[1] قال إنها تقع في المحيط الأطلسي.. وبالتحديد في تلك الفجوة ما بين المغرب وأمريكا الشمالية..

قال (محمود) في حيرة وهو يحك شعره الأشعث:

- لا أدري عن ذلك شيئًا.. لكن معلوماتي هي أن (هيرودوت) قال إنها في الصحراء الكبرى.. وأن الزلزال أبتلعها..

- يعني هذا أنها ليست قارة بل هي بلد..

- بالفعل..

ابتسم البروفسير الإيطالي في رزانة وقال:

- على كل حال هناك شكوك عدة في نظرية (أطلنطس) هذه.. منها أن علماء (الجيولوجيا) لم يجدوا آثار زلازل في

الصحراء الكبرى.. وبالتالي لا يمكن أن توجد هناك قارة تحت الأرض..

ثم إنه شرع يفكر هنيهة.. واستطرد:

- نظرًا لأنني أعمل في مجال التاريخ، فقد استرعت انتباهي قصة الكشوف التي قام بها (هنري لوت) عام ١٩٥٦، مع قافلة من العلماء.. واللوحات التي وجدوها على جدران الكهوف.. ويؤكد العلم - بالتحليل الذري - أنها رسمت منذ عشرين ألف سنة.. تخيلوا هذا!.. مائتي قرن..!!.. منذ مائتي قرن كانت هناك حضارة يعرف أهلها معنى الرسم..!.. ولا أبالغ كثيرًا إذا ما قلت، إنني - من أجل هذا - جئت إلى (ليبيا)..

ثم ابتسم في شيء من المرارة وقال:

- إنها الحقيقة.. الحقيقة التي لا تقدر بثمن، والتي ستهب العلم مرونة لا تقاس.. الحقيقة..

هنا ابتلعت ريقي.. متى سبق لي سماع هذه العبارة؟.. هل هو نوع من ظاهرة الـ (ديجافو)2 التي تجعلنا نتخيل أننا عشنا هذا الموقف من قبل، وسمعنا نفس الكلمات؟.. أم أنني حقًا سبق لي سماع ذلك؟..

آه... د. (رتشارد كامنجز)..!.. قالها لي يومًا منذ عشر سنوات تقريبًا، حين وقفنا أمام مومياء (دراكيولا).. نفس الكلمات.. ونفس لمعة العين المجنونة..!..

قال (محمود) في شيء من الفتور:

- لكنها مجرد تكهنات..

- تكهنات؟!

صاح البروفسير الإيطالي في عصبية:
- إذن كيف سيكون الحال لو غدت حقائق؟.. لوحات غامضة في كهف سحيق، يقولون إنها رسمت منذ مائتي قرن.. واللوحات تمثل رواد فضاء ورجالًا يطيرون.. فماذا ينقصنا كي نفهم؟!.. أن ينزل لنا طبق طائر به رجل أخضر له (إيريال) ويحمل بندقية (ليزر)؟!..
تنحنحت.. ثم قررت أن أتوكل على الله، وأقول كلمتي التي لن تسعد هذا المخبول حتمًا.. لكن سأجن لو لم أقلها:
- اسمعني يا (بروفسير).. أنت تعرف أن كل هذا الهراء عن سكان الكواكب الأخرى..
- هراء؟!!

- إنها عنصر جذب لا ينتهي، للعلماء.. وللأثرياء المعتوهين.. وصناع أفلام الخيال العلمي، الذين يعانون ضائقة مالية و....

- مالية؟!!

لحسن الحظ أنني لا أفهم الإيطالية، لأن سيلًا من السباب - المقذع بالتأكيد - انهال على رأسي.. سباب جعل وجه (محمود) يحمر كحساء الطماطم.. وجعل كل من بالقاعة يرمقونني في فضول، كأنني عار تمامًا..

كنت أنا - لأنني لا أفهم حرفًا - ما زلت جالسًا محتفظًا بهدوئي، وابتسامة السخرية الخافتة على ثغري..

- إذن أنت لا تؤمن بوجود مخلوقات عاقلة على كواكب أخرى؟

قلت في رزانة:

- عاقلة أو غير عاقلة.. لا يوجد شيء..

نظر لي (محمود) في حيرة.. وغمغم:

- عجيب هذا!.. قلت لي يا د. (رفعت) إنك مولع بأسرار ما وراء الطبيعة.. وأن لك خبرة هائلة في هذه الأشياء..

- لي خبرة.. ولكن كنت مجبرًا في كل مرة على أن أنغمس في هذه الأمور.. وما زلت أرى أنه من السفه تضييع الوقت والمال في شيء كهذا، على حين تزخر الحياة بالألغاز المفيدة، التي تستحق تفسيرًا - والتي يمكن أن نجد هذا التفسير لها - مثل: لماذا نصاب بمرض السرطان؟..

لماذا لا تتجح أمصال الأنفلونزا..؟.. لماذا تتصحر (إفريقيا)؟.. وكيف نوقف تلوث الأجواء..؟.. هذا هو المجال الوحيد الذي تفيد فيه الأسئلة.. هل يمكنكما أن تخبراني بجدوى معرفة، أن هناك كهوفًا رسمت عليها مخلوقات فضائية في زمن غابر؟..

هل ستجدان إجابة على أسئلتكما؟.. وإذا وجدتماها.. فما هي الجدوى؟..

ثم أشعلت سيجارتي في عصبية وأردفت:

- إن الحياة معقدة بما يكفي، وليس من الحكمة أن نغرق أنفسنا في ضلالات وأسئلة بلا إجابة.. ما دامت هناك أسئلة أخرى لها جدوى ولها إجابة إذا ما بذلنا شيئًا من الجهد..!

لعدة دقائق ساد الصمت، إلا من صوت انفاسنا.. ثم قال (باولو):

- هل انهيت كلامك؟!

- ليس تمامًا.. لقد قابلت كثيرين من المعتوهين، أحدهم يحاول إعادة مومياء (دراكيولا) إلى الحياة.. وأحدهم يحاول إثبات أن وحش (لوخ نس) حقيقة.. وأحدهم يؤكد أن (ميدوسا) لم تكن أسطورة..، ثم ماذا؟.. ماذا استفادته البشرية واستفدت أنا من كل هذا؟.. لا شيء.. فقط ساعات عصيبة من التوتر والرعب.. وليال مؤرقة.. وذكريات سوداء..

التمعت عينا (باولو) فضولًا، وبدا لي أنه نسي كل ما قلته من قبل، وشرع يسألني

في حماس عن كل هذا الذي سمعه.. وأين ومتى وكيف عرفت هذه الأساطير؟..
فقلت له في جفوة:
- مرة أخرى يا بروفسير.. أؤكد لك أنني لست (صانع أساطير) بل (هادم أساطير) إذا جاز لي أن أقول هذا..!
حتى منتصف الليل شرعت أثرثر.. وهما يسمعان نصف منبهرين ونصف مكذبين.. وحين دقت الساعة منتصف الليل، تثاءب (محمود) وقال إنه يرغب في النوم.. ووافقته أنا.. أما البروفسير، فكان شارد الذهن إلى حد ما.. وقد شعرت أن قصصي أوحت إليه بفكرة معينة..
إن مناقشتنا عن كهوف (تسيلي) لم تنته بعد، وقد بترت بترًا.. لكنه لابد عائد إليها

في الغد.. لهذا يجب أن أعود إلى الفندق في ساعة متأخرة طيلة الأسبوع القادم.. فإذا كان هو يملك من الصحة والصبر ما يسمح له بالثرثرة، فأنا لا أملك منهما ما يسمح بالإصغاء..!

❋ ❋ ❋

في غرفتي شرعت أكتب خطابًا لـ (هويدا).. هل تذكرونها؟.. (الإسكندرية) وزيارتي لـ (عادل) وشقيقة زوجته.. الخ؟.. كنت - حين قابلتها - متورطًا في كابوس آكل بشر وهمي.. ولم أكن أعرف أنني أوشك على التورط مع آكل بشر حقيقي!.. لكن دعونا لا نستبق الأحداث..

"عزيزتي (هويدا).... أكتب هذا الخطاب في غرفتي بالفندق.. والشوق يقتلني، لأن ذكراك الجميلة لا تفارقني... و...."

ما هذا الهراء؟!!..

إن هناك بائعي جرائد كثيرين، كتبوا لحبيباتهم الخادمات خطابات أكثر حرارة ورقة، وأقل افتعالًا..!.. إنها مجرد كلمات.. فلا الشوق قتلني ولا أنا أذكر وجهها أصلًا..! إنها مجرد حالة حب صناعية أحاول أن أصب نفسى فيها، لعلمي أن هذا هو واجبي نحو من ستكون زوجتي يومًا ما.. ثم إن رجلًا في الأربعين لخليق بأن يكتب خطابًا أكثر رقيًا من خطاب مراهق في الرابعة عشرة..

مزقت الخطاب السخيف.. حين دق الباب..

- ادخل..!...

فلم يدخل.. إن معنى هذا هو أنه لم يفهم ما قلته.. وما دام لم يفهمه فهو ليس عربيًا.. ما دام ليس عربيًا فهو..

- ادخل يا (بروفسير)!

قلتها واعتدلت في جلستي.. فدخل الرجل مرتديًا بيجامة صيفية زاهية الألوان إلى حد منفر.. وكان يمسك موسى الحلاقة في يده.. ووجهه مغطى برغاوي الصابون!.. إذن هو كان في غرفته يحلق ذقنه بثياب النوم حين..

-.. جاءتني فكرة غير عادية!!

قالها بحماس مجنون.. فهززت رأسي موافقًا.

- هذا واضح!
- هل تعرف هضبة (تسيلي)؟
- وفيم كان حديثنا هذه الليلة إذن؟
- سنذهب لهناك..!
- ماذا؟
- نعم!.. أنا وأنت و(محمود).. إعادة استكشاف.. أنا أملك الخبرة التاريخية، وأنت تملك الخبرة بالمجهول، و(محمود) من (فزان) حيث توجد الهضبة..!..

والتمعت عيناه في هستيريا حقيقية:

- ستكون أجمل تجربة في حياتك!

❋ ❋ ❋

فدخل الرجل مرتديًا بيجامة صيفية زاهية الألوان إلى حد منفر ..

وكان يمسك موس الحلاقة فى يده ..

٣ - دعونا نر!!

- بروفسير (باولو).. أعتقد أنني كنت واضحًا تمامًا في إظهار عدم اهتمامي بهذه القصة.. واضحًا إلى درجة الفظاظة..!..

- لكنك لا تفهم!

قالها واتجه إلى فراشي ليجلس عليه دون دعوة.. وأردف:

- إنها لغز الألغاز:: سر الأسرار.. إنها المرآة المسحورة التي ستقودنا إلى عالم آخر، له مقاييس أخرى...

أشعلت سيجارة.. وأمسكت حذائي، وشرعت ألمعه بالفرشاة.. قائلًا:

- حسن.. سنصل للكهوف ونهبط فيها، ونصل إلى (الأطلنطس) حيث نجد مدينة كاملة متقدمة علميًا، ولهم ملكة جميلة تحبني بجنون.. ثم يحدث زلزال وانهيار، وتدفن هذه الحضارة مرة ثانية، وننجو نحن.. أليس هذا ما تتوقعه؟.. ثم ماذا بعد ذلك؟!..

قال في نفاذ صبر:

- أنت تقرأ الكثير من قصص (رايدار هجارد) و(إدجار رايس بوروز)3..!

- كنت أظنك أنت الذي يقرأ الكثير منها..

- هل أفهم من هذا أنك ترفض القيام بهذه الرحلة؟

شرعت أتأمل الحذاء الذي صار براقًا إلى حد مدهش.. وقلت:

- أنا لا أرفض الرحلة.. أنت حر في الذهاب إلى الجحيم إذا أردت، ولكن وحدك.. حين يسألني أحدهم عما إذا كان يمكنه الذهاب إلى (ألاسكا)، فإنني لا أنهك ذهني.. فليذهب!.. لا مشكلة لدى..

- لكني أريدك معي..!

- هذا شأنك..!...

وألقيت الحذاء على الأرض، وتناولت فردته الأخرى.. وأطفأت سيجارتي في فنجان القهوة الذي برد قبل أن أشربه، على صوت احتجاج الرجل..

- أنا بحاجة لرفاق رحلة.. لشهود.. وأنت وصديقك تصلحان تمامًا لهذا الغرض.. ظننتك شجاعًا مثقفًا..

- وكنت مخطئًا.. أنا جبان جاهل.. فهل هذا كاف لتتركني؟

وهنا - وللمرة الأولى - بدأت أخاف هذا الرجل.. إذ أنني حين رفعت عيني تجاهه، وجدت العرق يغمر جبينه.. ونظرة مجنونة في عينيه.. وكل جارحة في جسده الضئيل ترتجف...

ومن بين أسنانه.. صدر فحيح كفحيح الأفاعي.

- د. (رفعت).. إنني لم أعتد أبدًا سماع عبارات الرفض... حين يريد (باولو جيرالدي) شيئًا ما، فإنه يناله، وليس على الآخرين أن يظهروا امتعاضهم!.. إنك ستقوم بهذه الرحلة.!.!

وقبل أن أجد ردًا مناسبًا.. انغلق الباب من خلفه، وتركني وحيدًا أمسك بفردة الحذاء والفرشاة.. وأرتجف!

* * *

حين حكيت محادثة أمس ل (محمود)، بدا عليه السرور.. وشرع يصفق بيديه في مرح ويضحك، حتى احتبست أنفاسه.. وكان تعليقه:

- إنك قد قدمت لهذا المعتوه ما يسيل لعابه.. لقد فاقت حكاياتك كل خيالاته، ولم يعد يحتمل أكثر.. وسرعان ما تحركت أمنية خافية في نفسه، هي أن يراك ويراني، ويرى نفسه في حملة عبر الصحراء لكشف المجهول..

- المشكلة أنه هددني..!
- إنه لم يتخلص بعد من عقد المستعمر الإيطالي.. هذا هو كل شيء..
كنا جالسين في مقاعد مريحة متراصة، عند مدخل الفندق، نرشف الشاي المعطر، ونطالع جرائد وجدناها هنالك..، حين ظهر البروفسير، وقد بدا عليه الهم والإرهاق، بعد ليلة طويلة قضاها - بلا شك - يرسم مئات الخطط الوهمية، ويكشف أسرار الكون..
ودون كلمة واحدة اتجه نحونا.. وجلس على مقعد كأنه حق مكتسب - وشرع يفرك يديه.. ثم طلب بعض الشاي وقال:
- لقد أعددت كل شيء.. ويمكننا أن نرحل غدًا!!

تبادلنا أنا و(محمود) النظرات.. إن هذا المخبول يتصرف ويتكلم كأنه لا إرادة لنا ولا رأي.. ماذا يريد منا؟..

- بروفسير (باولو).. لقد ظننتك فهمت ما قلته لك أمس...

صاح في لوعة حقيقية:

- لكنني قد درست كل شيء.. كل شيء.. مئات الاحتمالات والخرائط والمقالات التي تصف هذه الهضبة.. إنكما لن تخسرا شيئًا.. لقد جئت إلى (ليبيا) بهذا الهدف، لكني شيخ هالك وفي أمس الحاجة إليكما..!..

صحت في عصبية وأنا أجذب (محمود) لنبتعد:

- لكن أحدًا لا يقوم برحلة كهذه على سبيل المجاملة.. ألا تفهم هذا؟

- بلى.. ولكن..

ثم إنه جلس على المقعد يلهث، وقد بدا إنسانًا محطمًا منتهيًا...

هل فهم أخيرًا أنه لا جدوى من الضغط؟..

* * *

غدت حياتي في هذا الفندق جحيمًا.. فهذا المعتوه يطاردني في كل مكان، ويواصل الإلحاح.. ويغريني.. ويشرح لي خطة الرحلة..

أسبوع كامل مضى علي في هذه المعاناة البائسة، حتى أنني وجدت أن الحل الوحيد

أمامي هو أن أغادر (ليبيا).. أنا أستطيع أن أغادر الفندق، لكني كنت قد ارتحت له جدًا.. وأستطيع أن أقتل البروفسير - وسأستمتع بكل لحظة أفعل ذلك فيها - لولا أنني لا أحب كثيرًا أن أنهي حياتي على المشنقة..!..

إن الذبابة تستطيع أن تدمر حياتك، إذا ما كنت مثلي إنسانًا عصبيًا متوترًا.. فكيف أستطيع أنا - الذي يشرب مائة سيجارة يوميًا، ويبدل وضع قدميه ألف مرة في أثناء الجلوس - أن يتحمل هذه الذبابة البشرية العملاقة.. اللزجة.. اللحوح؟!..

نعم.. يجب أن أغادر الفندق فورًا..

وهنا حدث شيء غير متوقع.. جاءني (محمود) إلى غرفتي، وفي خجل أخبرني

أنه ينوي أن يقوم بالرحلة... ولم لا؟.. إن الأمر يثير الفضول.. ثم هو ذاهب إلى (فزان) وطنه ومسقط رأسه.. وهو واثق أن الأمر ليس خطرًا، بدليل أن كل من زاروا هذه الكهوف عادوا سالمين..

- إن هضبة (تسيلي) - هكذا قال لي - هي أقرب إلى أحد المعالم السياحية التي يجب أن تراها.. مثلها مثل قوس نصر (ماركوس أوريليوس) الذي حرصت على رؤيته هنا في (طرابلس)..

ثم إنه أخبرني أن البروفسير يعتزم أن يقوم بالرحلة في طائرة مروحية وليس على ظهور الجمال كما فعل (هنري لوت) منذ عشر سنوات.. وبالتالي لن تكون رحلة مرهقة..

تدريجيًا - وتحت هذه الضغوط المكثفة - بدأت أجد الفكرة غير سيئة إلى هذا الحد.. لم لا..؟.. على الاقل سأرى بعيني كل ما رآه هؤلاء العلماء الذين ذهبوا وانبهروا وعادوا سالمين..

لم يتحدث أحد عن وجود مصاصي دماء، أو أشباح، أو وحوش خرافية في هذا المكان.. وبالتالي لن تلعب موهبتي الخاصة - موهبة الذهاب إلى المصائب - دورًا في هذه المغامرة..

ثم إن (محمود) شاب عاقل ورزين، ومعه سأعرف الكثير عن هذا الجزء من وطني.. (ليبيا)..، والبروفسير مخبول لكنه مسل.. وأنا أحب هؤلاء العلماء المخبولين المسلين..

نعم.. لم لا أوافق؟..

صحيح أن الرجل هددني.. صحيح أن دواعي الكرامة تقتضي أن أتشبث برفضي حتى النهاية، لكن ما قيمة تهديد هذا الرجل الضئيل لي.. وأية إهانة يمكن أن يسببها لي معتوه مثله..؟::

وهكذا - في مساء ذلك اليوم - توجهت لغرفة الإيطالي.. وقلت له إنني أوافق على الذهاب معه في هذه الحملة البائسة..!..

❋ ❋ ❋

من مكاني جوار النافذة، شرعت أرمق الكثبان الرملية ونباتات الصبار المتناثرة في الصحراء، مفكرًا في ما ينتظرنا..

قال لي (محمود) بصوت عال كي يتغلب على هدير المحرك:

- أ.. بادنا.. هابة... اسعة...**!**

- ماذا تقول؟.

فألصق فمه بأذني صارخًا، وشعره الأشعث يتطاير في جنون:

- إن بلادنا هي هضبة واسعة**!**.. صحراء جرداء تمامًا، لأنه لا توجد جبال على الساحل تكثف المطر مثل (تونس) و(الجزائر)..

ثم نظر خارج النافذة وصاح:

- لا.. ها... بادي..نا أبها**!!**

- لا أسمع..

- إلا أنها بلادي.. وأنا أحبها**!!**

كانت محركات الطائرة تهدر حتى لتمزق طبلت أذني.. ومروحتها الوحيدة تتموج في المقدمة، في حين جلس الطيار الليبي (أحمد الإدريسي) خلف ذراع القيادة.. وجواره البروفسير يردد عبارات حماسية لا تنتهي باللغة الإيطالية..

كنا قد استأجرنا هذه الطائرة من أحد المطارات القديمة، التي شيدها الإيطاليون قرب (سبهة)، وهو مطار منسي لا يعلم أحد شيئًا عنه..

وكانت هذه هي الطائرة الوحيدة التي وجدناها.. على الأقل كانت قادرة على الطيران، دعك بالطبع من قدرتها على ألا تتهشم، لأن هذا شيء بيد الله تعالى!...

وفي ذلك الزمن كانت هناك بقايا للنفوذ الأجنبي في (ليبيا).. لهذا ظلت (فزان) تحت النفوذ الفرنسي.. و(بنغازي) تحت النفوذ البريطاني.. و(طرابلس) تحت النفوذ الإيطالي.. في حين احتفظت الولايات المتحدة بقاعدة جوية واحدة هي (هويلس)4..

ولهذا احتاج البروفسير إلى الحصول على تصريح للطيران من الجهات الفرنسية المسيطرة على (فزان).. وحصل على هذا الطيار الليبي المشهود له بالكفاءة..

وها نحن أولاء نتجه نحو الحدود الليبية الجزائرية، حيث هضبة (تسيلي) التي لم أكن أعرف عنها شيئًا منذ أسبوع..

كانت معنا أسلحة.. وأطعمة. ومياه بكميات وافرة، مع بعض أدوات الحفر والتسلق.. وكاميرا.. (وأخذت معي عشرات من علب السجائر على سبيل الاحتياط).. وبعض الأدوية التي لا تصلح لعلاج أي شيء..

سألت (محمود) وانا اتفحص الحقائب::

-.. أيف..انزل.. نره حراء... أل.. أك.. أز؟

- ماذا؟:.

- كيف سينزل بالطائرة في الصحراء؟!.. هل هناك ممر؟

- بالطبع لا.. وإلا استعمله (هنري لوت).. إنه يأمل في العثور على مكان صالح لذلك فوق الرمال!!..

أرتفع الدم إلى رأسي:.

- لكنكما معتوهان - أنت والبروفسير - ومن الواضح أن هذا الطيار ليس أفضل حالًا.. إن هذا سيؤدي إلى انغراس الطائرة في الرمال ولن تعود للإقلاع أبدًا..!.!

- يقول الطيار إنه سيحاول ألا يحدث هذا..!

ماذا أقول وماذا أصنع؟.. وأي مأزق رميت بنفسي إلية؟.. على أنني لم أر داعيًا لاستباق الأحداث.. لهذا قلت بصوت عال:

على كل حال لن تصل هذه الطائرة أبدًا..!

- لماذا تقول ذلك؟.

- لأن كل هذه الطائرات ذات المحرك الواحد لا تفعل شيئًا سوى السقوط بركابها

في أسوأ الأماكن.. البحر أو الصحراء، والأدهى هو أن ركابها يظلون أحياء ليواجهوا ما هو أسوأ و..!!

سمع البروفسير صوت صراخي، فأدار جذعه ورأسه من المقعد الأمامي ليسألني عن سبب. الصراخ.. فمال (محمود) على أذنه وشرع يشرح له وجهة نظري.. تلك الوجهة التي لم ترق له - طبعًا - فوجه لي نظرة حادة قاسية.. وأدار ظهره لنا في اشمئزاز...،

الصحراء لم تزل راقدة في خمول تحتنا.. وفي كل ثانية تكشف لنا عن جزء من وجهها القبيح الأجرد المغطى بالبثور..

مال (محمود) على أذني وصرخ ولعابه يتناثر في وجهي:

- الصحراء الكبرى هي ربع مساحة (أفريقيا).. أما ما تراه الآن فهو واحة (حمادة الأوباري).. بعدها (حمادة مرزق).. ثم (نمات)... وأشار إلى مساحات شاسعة من الرمال.. وصاح:

- بحر الرمال.. إن عرضه يصل لمائة وستين كيلومترًا.. والويل لمن يجد نفسه فيه..!

- مثلنا...!

فنظر لي نظرة نارية، كي أكف عن التشاؤم.... ونسّق شعره المبعثر.

* * *

ثم بدأت الحشرجة..!..

في البدء لم تكن واضحة.. ثم بدأت تتعالي رويدًا.. رويدًا.. وعرفنا أن هذا الصوت قادم من المحرك.. المحرك الوحيد لهذه الطائرة!...

وبدأت المروحة تفقد انتظام حركتها.. والحشرجة تتعالى... الطيار قد فقد ثباته ووقار جلسته، وأحمرت أذناه مما يدل على أن هناك مشكلة ما.. والبروفسير يسب ويلعن بألفاظ لا أفهمها.. ثم إنه التفت لي وصرخ ووجهه يرتجف غضبًا:

- أنا.. عيد؟.. آرك.. أد.. أقف.. إيا!

- ماذا تقول؟

فقرب فمه من أذني وعاد يصيح مكررًا ما قال:

- أقول: هل أنت سعيد؟.. إن المحرك قد توقف نهائيًا!!..

وهنا توقف هدير المحرك.. وعدنا يسمع بعضنا البعض كأوضح ما يكون..!!

ليتني أغلقت فمي!

❋ ❋ ❋

٤ - بحر الرمال..

لو كان هذا فيلمًا سينمائيًا، لكان هذا المشهد عبارة عن حشد من اللقطات السريعة المتلاحقة، التي لا تزيد الواحدة منها على ربع ثانية.. يقوم بلصقها (مونتير) موهوب.. ثم يضيف إليها شريط صوت حافلًا بالصراخ والبكاء والعويل.. ولا بأس من موسيقا تصويرية سريعة توحي بالنهاية..

ستكون اللقطات كما يلى..

محرك متوقف.. طائرة تنحدر بسرعة لأسفل.. شفتان ترددان الشهادة.. عينان

زرقاوان متسعتان.. يد تجذب عصا التحكم في هستيريا..

العرق على جبيني.. الصحراء تقترب أكثر.. طائرة تنحدر.. يد تجذب عصا التحكم في قوة مجنونة.. يد طفولية دقيقة تحاول التشبث بزجاج النافذة دون جدوى.. نظارة تتطاير..

ثم تزداد سرعة الإيقاع.. وتقصر اللقطات..

يد.. عصا.. طائرة.. عينان.. صحراء.. محرك.. ثم شخص أصلع يبحث جاهدًا عن نظارته التي انزلقت من على وجهه (هذا أنا طبعًا)...

ثم الرمال تنتثر في وجه المشاهد.. وتظلم الشاشة..!..

هذا هو ما كان سيراه المشاهد لو أن هذا فيلم سينمائي.. أما والأمر حقيقة فإنني أكتفي بالقول إن الطائرة سقطت.. وقد نجح الطيار في الهبوط بها بشكل شبه أفقي لهذا لم تكن الخسائر فادحة.. وتكفلت الرمال بدفن نصف الطائرة داخلها، مما امتص الصدمة إلى حد كبير..

لقد نجونا.. ولكن ماذا بعد ذلك؟..

❋ ❋ ❋

بعد نصف ساعة استطعنا مغادرة جسم الطائرة، بعد أن أزلنا أطنان الرمال الجاثمة خلف بابيها..

بعد نصف ساعة استطعنا مغادرة جسم الطائرة ، بعد أن أزلنا
أطنان الرمال الجاثمة خلف بابيها ..

كان البروفسير يغلي غضبًا.. وصاح في وجهي وهو ينفض ذرات الرمال عن ثيابه:

- هل رأيت أيها المنحوس؟.. لولا تشاؤمك لما حدث شيء!

قلت في برود:

- بالعكس.. إن المتشائم يتوقع الشر فيجده، أو يجد ما هو أفضل، وبالتالي هو يحتاط لكل شيء ولا يؤمن بالحظ.. أما المتفائل فهو يتوقع الخير دائمًا، وهذا شيء عسير..، ولهذا يجد المتشائم في كل وضع سيئ ما هو أفضل من توقعاته..!

- وما هو الأفضل من توقعاتك هذه المرة أيها الفيلسوف
شرعت أفكر هنيهة ثم قلت:.
- لا أدري.. على كل حال لم يصب أحدنا في هذه السقطة، وهذه نقطة في صالحنا.. يجب أن تكون بكامل لياقتنا حين تهاجمنا الذئاب!!
- ذئاب؟
- طبعًا.. هذا شيء حتمي.. لو لم نر ذئابًا لشعرت أن هناك خدعة ما..!.. ولا بد كذلك من الظمأ.. وبعض السراب!...
أعتقد أن القارئ يستطيع أن يخمن ما قاله البروفسير وقتها.. كل هذه الشتائم الإيطالية المشينة التي لا أعرفها الحسن

الحظ.. وإن كنت قد استنتجت معناها من احمرار أذني (محمود)...!

أما الأذن الأكثر احمرارًا فكانت أذن الطيار (أحمد) وهو يخرج من بين كثبان الرمل نادمًا على ذنب لم يقترفه..

يا له من مأزق!.. أين نحن؟.. وكيف سنعود؟..

* * *

قال (محمود) وهو يمعن النظر في البوصلة:

- لاشك أننا قرب (نمات) الآن.. وهذا يعني أننا وصلنا تقريبًا..

كل ما علينا أن نجد السير...

قال البروفسير في جدية:

-.. في أي اتجاه؟..
بالتأكيد في الاتجاه الجنوبي الغربي.. هذا هو اتجاه الحدود وربما الهضبة..
ولربما قابلنا قافلة في أحد المدقّات..
قلت وأنا أجلس على الرمال الساخنة:
- سيكون من الخطر أن نترك الطائرة.. ففيها الظل والمأوى..
نظر لي (محمود) نظرة باردة.. ودمدم:
- هل تحب أن تظل هنا حتى تجفف الشمس عظامك؟.. لا أحد يعرف مكاننا.. ولن يبحثوا عنا..
وهكذا شرعنا نخرج ما بالطائرة من مؤن.. وسلاح و... ماء.. لا تنسوا الماء**!** فلن نلبث يومًا حتى تصير القطرة منه أغلى من الجواهر.. ثم إنني حملت

سجائري.. وشرعنا نجد السير فوق الرمال..
ما أقبح الصحراء!.. ذلك المشهد الرتيب الذي لا يتغير، الرمال وجبال قصية ونباتات صبار.. والرمال ليست صفراء زاهية كما تبدو في الصور، بل هي ذات لون رمادي متجهم..، وكلما دنوت من الجبال البادية في الأفق، بدأت تدرك أنها ليست جبالًا.. بل هي مجرد مرتفعات رملية تمشى فوقها، وترى في الأفق جبالًا جديدة..!
الهباء!.. العبث!.. هذا هو ما تعنيه الصحراء لي..
الشمس عمودية تملأ عينيك بالكرات الملونة حين ترفعهما لأعلى.. وعلى

الرمال تتناثر مئات الشموس.. آلاف.. ملايين.. كلها تصب أشعتها عليك.. وقدماك تغوصان.. تغوصان..

وجلدك يلتهب دون عرق... و...

وسقطت على الأرض صارخًا:

- لم أعد أستطيع الاستمرار..!.. اتركوني أموت واذهبوا..!

اقتربا مني البروفسير معنفًا.. وسألني:

- قل لي.. ألا تجد غريبًا أن تصاب بكل هذا بعد ساعتين فحسب؟!

ساعتين؟.. فقط ساعتين؟.. ظننت أننا نمشي منذ ثلاثة أيام..!

يا للهول!.. إذن لم يزل أمامي الكثير من هذا العذاب قبل أن أموت...

قال البروفسير وهو يناولني الزمزمية:

- إنني أفهم أمثالك من ضعاف النفوس.. ما إن تسقط في الصحراء حتى تظن - بعد ثلاث دقائق - أن من واجبك أن تموت جوعًا وظمأ وإرهاقًا.. لكن دعني أؤكد لك أنني أفهم كل هذه الألاعيب النفسية.. فلا تعابثني!..

شرعت أجرع الماء شاعرًا أنني أعيش أتعس ساعات حياتي.. كان البروفسير في حال نفسية لا بأس بها.. وعرفت فيما بعد أنه حارب في (طبرق) يومًا ما، إبان الحرب العالمية الثانية، فلم تكن الصحراء قادرة على إرهابه أو إنهاكه..

كان يمشي فخورًا منتشيًا يتقدم مسيرتنا.. وخلفه (محمود) و(أحمد) ثم أنا.. مثال البؤس والتعاسة..

إن لون الرمال يتغير بشكل واضح..

توقف (محمود) للحظة مفكرًا، ثم إنه نادي البروفسير طالبًا منه ألا يتقدم أكثر.. والتقط حجرًا ثقيلًا على الأرض، ورمي به إلى مسافة خمسة عشر مترًا.. وعلى الفور اختفي الحجر..!.. إذن هي رمال متحركة كأن هذا كان ينقصنا..

- إن سطح الرمال المتحركة يكون أكثر انتظامًا ونعومة من الرمال المحيطة به.. ويسهل على العين المتشككة أن تجدها..!..

صاح البروفسير في عصبية:

- لكن هذا خطير جدًا.. يجب أن ندور حول هذه المنطقة..

عض (محمود) شفته السفلى التي بدأت تتقرح.. وقال:

- لا داعي لهذا.. يمكننا أن نمشى في حذر مدربين عيوننا على تجنب الرمال الناعمة أكثر من اللازم.. سنسير في صف رباعي حتى لا يسقط أحدنا دون أن يدري به الآخرون..

ثم رفع اصبعه محذرًا:

- وليتذكر كل من يسقط في هذه الرمال المخلخلة، أن عليه ألا يحاول الصعود في حركات هستيرية تزيده غوصًا.. فقط يحاول أن يطفو على ظهره ويسترخي تمامًا حتى ننقذه..

قال البروفسير مؤمنًا:

- إن هذه الرمال كالماء تمامًا.. من يحاول أن يقف فيه يهبط لأسفل، أما من

يحاول أن يستلقي على ظهره فيظل طافيًا.. كأنها سباحة عادية..

- هذا شيء مطمئن لأنني لا أجيد السباحة!

كانت هذه هي كلمتي التي أثارت جوًا عامًا من الوجوم.. ولم يرد أحد، وبدئوا يتحركون ببطء وحذر فوق الرمال ومعهم مضت..

لو لم تكن (البوصلة) معنا لقلت إننا ندور في دوائر مفرغة.. أكاد أقسم أنني رأيت هذه المجموعة من نباتات الصبار عشرين مرة منذ فارقنا الطائرة..!..

وفجأة لمحنا مشهدًا نراه للمرة الأولى..

إنها طائرة.. طائرة ذات محرك واحد ومن طراز عتيق جدًا.. كانت واقفة على

مقدمتها مدفونة في الرمال إلى نصفها.. وجناح من جناحيها مهشمًا تمامًا، وكل جسمها من المعدن الصدى المحترق..، إنها طائرة حربية سقطت براكبها البائس منذ عشرات السنوات ووجدناها نحن..

- إنها إيطالية..!..

هكذا هتف البروفسير وهو يجرى ليعاينها.. وشرع يدور حولها متأملًا ومتحسسًا المعدن المتآكل في حنان حقيقي:

- لابد أنها سقطت هنا منذ أربعين عامًا.. فهذا هو طراز الطائرات المميز لهذه الحقبة.. أية روعة!...

قال (محمود) في فتور وقد بدا عليه الحنق:

- بالطبع سقط هذا السفاح، قبل أو بعد غارة على الآمنين من أهل وطني في (فزان)..!.. لقد نال جزاءه..

امتقع وجه البروفسير، وبدا لنا أنه موشك على الانفجار:.

- أيها الشاب.. لقد كان هذا البائس جنديًا ولم يفعل سوى ما أمر به.. أنا نفسي حاربتكم لأن (الدوتشي) أمرني بذلك..!

- لقد ذبح مواطنوك أطفالنا.. ولا أستطيع أن أتصور أن (موسوليني) قد نادى جنرالاته إلى مكتبه، وأمرهم أن يذبحوا الأطفال.. هم فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يفعلوه.. ثم تجد الواحد منهم بعد الحرب يقول في براءة عذبة: لا تلوموني!.. أنا جندي..!.. لقد فعلت ما أمروني به!..

لم يرد البروفسير وشرع يدور حول الطائرة في افتتان.. ومن بين أسنانه كان يدندن لحنًا حماسيًا بالإيطالية.. واضح طبعًا أنه نشيد كان (الفاشيست) يرددونه في أيام الحرب، عن مجد (روما) وما إلى هذا الهراء.. ثم هتفت بكلمات ما لم أفهمها رافعًا كفه إلى السماء..

هذا الرجل مخبول تمامًا.. ربما أكثر مما تصورنا.. والمفزع أننا معه في قارب واحد.. إن هذه الرحلة لن تمر على خير.. أعرف هذا وأشعر به وأنتظره في هلع!..

لقد بدأ الليل يزحف..

❋ ❋ ❋

بعد ثلاث ساعات:

ها نحن أولاء جالسون حول النار المشتعلة - التي اشعلها (أحمد) - نتبادل النظرات.. وظلالنا ترتمي خلفنا فوق الرمال.. لا صوت هنالك سوى قرقعة الأخشاب وأنفاسنا.. وفي يد كل منا قطعة من اللحم المقدد يلوكها بصعوبة.. الليل البهيم - ليل الصحراء - يرتمي بثقله فوق الرمال وفوق أرواحنا..

البروفسير يداعب ألسنة اللهب بعصا في يده.. و(أحمد) يميل برأسه على صدره.. وأنا غارق في خواطري السوداء... حين..

هل سمعتم؟!..

ها هو ذا العواء الطويل الحزين تتردد أصداؤه عبر الصحراء.. ثم ترد عليه

عشرات الأصوات المماثلة..، ها هو ذا أسوأ كوابيسي يتحقق..
إنها الذئاب..!..
لم يبد على واحد من رفاقي أنه سمع ما سمعت.. ولم تتغير جلسة أحدهم أو تعبيرات وجهه.. إلا أن (أحمد) مد يده إلى بندقية وشرع يجرب تركيب إبرتها.. ثم تنهد ورفع رأسه.. وتمضي الدقائق بطيئة..
لابد أن الساعة كانت تدنو من منتصف الليل حين رأينا أول الذئاب..
في ضوء اللهب البعيد كانت عيناه تلتمعان كجمرتين، وهو يدور حولنا في فضول مرارًا وتكرارًا.. لابد أنه زعيمهم يحاول معرفة ما هنالك..

التقط البروفسير قطعة من الخشب الملتهب وقذفها تجاه ذلك الزائر غير المرغوب فيه.. لكنها لم تصبه.. فقط نجحت في إبعاده بضعة أمتار.. ثم إن (محمود) أشار إلى نقطة ما خلف ظهري:

- هناك آخرون..!

وثبت كالملسوع لأرى ستة أو ثمانية عيون ملتهبة تقف على مسافة عشرة أمتار مني.. إلا أن صوت (محمود) عاد ينهرني:

- لا تجر!.. اجلس كما أنت.. إن الحركات العصبية السريعة تستفزها.. وهي لن تهاجم فردًا في جماعة أبدًا..

- أعرف ذلك.. ولكن هل تعرفه هي أيضًا؟!

كان واضحًا أن الذئاب لم تسمع بهذه المعلومة من قبل.. إذ أن أحدها اقترب مني في تؤدة، ورائحة أنفاسه العفنة تفعم أنفي.. ثم حنى رأسه، وعيناه الرماديتان الجهنميتان لا تفارقانني.. وأطبق على كم قميصي وشرع يجذبه..!.. لم أتحرك في البداية حتى لا أستفزه.. ثم عدلت عن ذلك..

شرعت أحاول تحرير كمي من هذين المنجلين الحديديين دون جدوى.. فقط ازداد زئيره.. وهنا أدركت أنني في مأزق.. مأزق حقيقي..

إنه يجرني معه خارج دائرة اللهب**!!**

*   *   *

٥ - الطوارق..

- (محمود)!.. افعل شيئًا..!
- هيه!.. أبتعد يا ابن الشيطان!.. اتركه..!
لم أكن قد غيرت وضع جلستي، بينما كم قميصي في فم هذا الوحش.. وأنا أحاول ألا أفقد اتزاني..، ذلك المشهد الذي ذكرني بالكلب البوليسي حين يتعرف على متهم في عرض، ويجره جرًا خارج دائرة المشتبه فيهم...
وفي رزانة وثقة مد (أحمد) يده إلى البندقية.. في تؤدة صوبها نحو الذئب من

مسافة لا تتجاوز مترًا.. و.. ضغط الزناد...

دوى صوت الطلقة في الصحراء.. وحين انقشع الدخان ورائحة البارود كانت هناك جثة ذئب ضخم ممرغة في الرمال، والدم ينز من جبينها.. وكنت أجلس جوارها مشتت الفكر..

وكأنما كانت هذه هي الإشارة..

سرعان ما اندفعت عشرة ذئاب من الظلام نحونا.. ذئب وثب فوق (محمود) فأسقطه أرضًا، وشرع يفتش عن حنجرته.. وذئب وقف على قدميه الخلفيتين منشبًا أنيابه في صدر البروفسير.. أما أنا فكان من نصيبي ذئب معتوه هزيل الجسد سد علي طريق الهرب، وهو يزوم وشعر

عنقه منتصب كالإبر.. كان هذا الأبله ينقصني..!.. بادرته بركلة عاتية في ذقنه جعلته يولول.. ويهرع مذعورًا وذيله بين فخذيه.. في حين كان نابان حادان ينغرسان في لحم ساعد (أحمد)..

إن الموقف سيئ.. ومن الواضح أن هذه الذئاب لا تأكل بما يكفي مما جعلها تتمرد على قوانين علم (سلوك الحيوان).. إلا أنني أستطيع أن أجد مسدسي طالما أنا الحر الوحيد هنا..

هرعت إلى حقيبتي وفككت المسدس من داخلها..

واستدرت في الوقت المناسب لأجد ذئبين يهرعان نحوي.. كتمت أنفاسي وأحكمت

التصويب.. ثم.. لمحت ذئبين يتلويان ألمًا فوق الرمال...

وركعت على ركبتي، وبدأت اضغط الزناد.. اضغط.. أضغط.. رائحة البارود.. وجثث مشعرة تتناثر.. وصدي الرصاص يدوي..

وركعت على ركبتيّ ، وبـدأت أضغـط الزنـاد .. أضغـط ..
أضغط .. رائحة البارود .. وجثث مشعرة تتناثر ..

حتى شعرت بيد (محمود) تنشب مخالبها في ذراعي:

- كفي!.. كفى!..

واصلت ضغط الزناد في جنون..

- (رفعت)!.. كفى!.. لقد هربوا بعد أن مات ستة منهم!

هه؟.. وتراخت عضلاتي أخيرًا.. على حين سمعت (أحمد) يقول ضاحكًا:..

- خمسة ذئاب بست رصاصات!.. هل تعترف الآن أن كل إنسان يمكن أن يتحول إلى جزار إذا ما اقتضى الأمر ذلك

هززت رأسي في اشمئزاز.. ورميت المسدس أرضًا.. إنني أمقت السلاح.

أمقته.. لكن شيطان العنف قد تحرك لثوان في أعماقي.. وكانت كافية..، قد يقول أحدكم إني كنت مرغمًا.. لا.. كانت تكفيني طلقتان أو ثلاث.. أما ست طلقات، فلا مبرر لها سوى أنني أصبت بحالة من الدموية لم أكن أحسبني معرضًا لها..

على كل حال، لقد نجونا من هذا الهجوم.. ولا أحد ينكر أنني صاحب الفضل الأول في هذه النجاة!..

شرعنا نعود إلى أماكننا في إنهاك.. على حين كوم الطيار الجثث الست جوار بعضها البعض بعيدًا عنا..، وفي وجوم غدنا نحشوا أسلحتنا تحسبًا لهجمة أخرى من هذه الوحوش المتحمسة..

مر ربع ساعة ثم سمعنا صوتًا..

صوتا آدميًا ينادي!.. فوقفنا متحفزين لنرى هنالك...

وفي الظلام لمحنا وحوشًا عملاقة تدنو منا.. وحوشًا لها ظهر عال مدبب وعنق طويل.. إلا أنها حين اقتربت أكثر، عرفنا أنها جمال يمتطى ظهر كل منها رجل ملثم ضخم الجثة.. كانت تقترب في تؤدة من النار التي أشعلناها وتدور حولها..

- السلام عليكم!

هكذا حيانا أحد الرجال بلسان ليس عربيًا تمامًا.. فرددنا التحية بأحسن منها.. همست في أذن (محمود):

- طوارق؟

- كلا.. بل (تبو) وهم يشبهون الطوارق كثيرًا..

- وما الفارق بينهما؟
- الاسم..؟..
كان الرجال يحيطون بنا حاملين بنادقهم.. مهيبين. غامضين..
وكان كبيرهم يقول لـ (أحمد) وهو مازال على جملة:
- سمعنا صوت الرصاص فهرعنا إلى هنا.. لقد أدركنا أن الذئاب قد هاجمت أحدهم.. إن ناركم قد قادتنا إلى هذا المكان..
لم يحتج البروفسير إلى ترجمة كي يعرف موضوع المحادثة.. فالموقف يفسر نفسه بوضوح تام.. إننا سعداء الحظ.. ولقد نجونا بعد اثنتي عشرة ساعة من سقوط

الطائرة، وبالتالي لن يكون هناك جوع ولا ظمأ..!.. حمدًا لله.

شرع (أحمد) يحكى لهم قصتنا.. وكان اثنان منهم قد أناخا جمليهما فوق الرمال، وتقدما نحونا..، وعلى حين كانا يصغيان لحديثه، شرعت أتأمل ملامحهما..

كانا ملثمين بلثام ازرق اللون من القماش المصبوغ بالنيلة.. وكانت بشرتهما سمراء، إلا أن أحدهما كان أزرق العينين..

الملامح قوية صلبة مليئة بالرجولة - على الأقل ما بدا منها خلف اللثام - وكان كل منهما يحمل سيفًا مرعب الشكل، ذا حدين وخنجرًا وبندقية عتيقة، زخرفت بنقوش عربية بديعة..

صاح البروفسير في لهفة وهو يتابع المحادثة العربية:

- عم تتحدثون؟.. أنا لا أفهم حرفًا..!

التفت إليه وشرعت أترجم بسرعة خلاصة المحادثة.. ثم قلب إنهما يرغبان في معرفة وجهتنا.. فقال في دهشة:

- هل هذا سؤال..؟.. هضبة (تسيلي) طبعًا!

كان الرجلان فد سمعا لفظة (تسيلي) وسط الألفاظ الانجليزية، فتلاقت عيناهما في نظرة ذات معنى.. ولكن أي معني؟..

ولبضع دقائق ساد الصمت.. ثم قال أحدهما لي:

- هل تصحبوننا؟.. إننا نخيم على مسافة قريبة من هنا.. ومعنا أربعة جمال بلا

راكب...

- هذا محتم...

وفي صمت اطفأنا النار.. وحملنا حاجياتنا.. واتجهنا إلى.. إلى أربعة جمال تنيخ فوق الرمال.. يا للهول!... كيف يمكن ركوب هذه الديناصورات؟.. إلا أن أحد (التبو) ساعدني على الصعود إلى ظهر جمل.. ثم أصدر له أمرًا وربت على أنفه، فوجدتني وكأنني في أرجوحة معلقة من طرف واحد..!.. أمامًا.. خلفًا.. أمامًا... وصراخي يملأ الصحراء.. ثم استقر الديناصور على أقدامه الأربع، وشعرت أن الأمر يتحسن.. وكأنني أرمق الصحراء من شرفة عالية..

كانوا ما زالوا يضحكون ساخرين، حين بدأت المسيرة تتحرك.. والان أفهم لماذا أسموا الجمل ب (سفينة الصحراء).. لأن الراكب فوقه يصاب بدوار البحر... نعم.. أنا واثق من ذلك..

* * *

في مخيم هؤلاء الرجال جلسنا نحسو لبن النياق الرائب، ونأكل التمر...

كان النهار قد جاء بشمسه القاسية ورماله الملتهبة، لكن الوضع كان يختلف هذه المرة.. وشرعت أرمق - في فضول - كل تفاصيل هذا المخيم.. كانت الخيام مصنوعة من جلد الإبل المدبوغ دون عناية وهنا وهناك كانت امرأة من نسائهم

تقوم بمهام يومها الرتيبة.. وأدهشني أن النساء حاسرات الوجه، في حين لم ينزع رجالهم اللثام إلا في أثناء الأكل والشرب، وكان وجههن وسيمًا، فيه شيء من الجمال الخشن.. جمال الصحراء.. وكما بدأت ألاحظ، أنه كانت هناك عيون زرقاء أكثر مما كنت أتوقع..

أما اللون الأصفر الغريب على وجوههن، فهو مسحوق من خام النحاس يبعدن به الذباب.. وأما اللون الأحمر على كفوفهن وأقدامهن فهو لون الحناء التي تضعها المرأة المتزوجة..

وكانت النساء المتزوجات يتحركن بحرية تامة، ويجلسن معنا دون حرج، أما الفتيات فلم نر منهن واحدة..

كنت غارقًا في هذه التأملات، حين شعرت بيد البروفسير تجذب معصمي، لأشارك في الحديث.. كان (محمود) يتكلم شارحًا ما يريده العالم الإيطالي من هؤلاء (التبو):

- إننا نرغب أن تشاركونا هذه الرحلة، وتقودونا إلى كهوف (تسيلي).. وسنجزل لكم العطاء..

شرع الرجال يتبادلون النظرات التي لا أفهم مغزاها.. ثم قال واحد منهم، عرفت فيما بعد أن اسمه (كريم)، وأنه قائد هذه المجموعة الصغيرة، وأقوى رجالها شخصية وبأسًا:

- سيدي.. إن الطوارق لا يتحدثون كثيرًا.. قدم عرضك..!..

نقل (محمود) هذه الكلمات إلى البروفسير، الذي مد يده إلى جيبه، وشرع يعبث هنا وهناك، ثم أخرج شيئًا أصفر اللون براقًا.. إنها سبيكة لا بأس بحجمها.. سبيكة ذهبية.. وصاح في لهجة منتصرة:

- هذه..!.. ولكم مثلها عندما نعود من الكهوف..

تناول الرجل السبيكة ووزنها في يده بخبرة.. ثم قال وقد بدا عليه الاهتمام:

- ولماذا تدفع الثمن ذهبًا؟!

- لأنني أعتقد أنكم لا تتعاملون بالعملات الورقية..

انحنيت جوار أذن (محمود) وهمست:

- هل كان يحملها معه طيلة الرحلة؟

- هذا واضح.. إنه حذر جدًا وقد قدر أنه سيحتاج لمعونة الطوارق في مرحلة ما من الرحلة.. وقد كان..!

ولماذا يخبرهم أن معه سبيكة اخرى؟.. من الممكن أن يذبحونا في أية لحظة ليأخذوها..:.

ابتسم (محمود) في ثقة وهو يداعب شعره الأشعث:

- ليس مع (التبو).. إن هؤلاء القوم مثال الشرف...شديدو الكبرياء، إلى حد أنه لا يوجد شيء يستطيع افسادهم.. ثم إننا تحت رحمتهم على كل حال..!

قال (كريم) وهو يدس قطعة الذهب في جيبه:

- ما دمتم تريدون الهضبة إلى هذا الحد.. دعوني أعرفكم على دليل لن تجدوا مثله وإن جهدتم.. وإنها لإرادة القدر.

وأشار إلى أحد الرجال الصامتين الجالسين جواره:

- تكلم يا (جبريل)..

في هذه اللحظة - وكأنما بعصا سحر - رمي البروفسير وعاء اللبن الخزفي.. والتمع وجهه حماسة، ووثب من مكانه كالملسوع:

- (جبريل)... (جبرين)!.. أنت..؟!.. أنت؟!..

وشرع يتحسس وجه الرجل - الذي لم يبد علامة اهتمام واحدة - وهو يردد:

- أنت دليل (هنري لوت)!.. الدليل الذي قاده إلى كهوف (تسيلي) منذ عشر سنوات!!.. أنت نفسك..!

أعاد (جبريل) لثامه إلى وجهه في هدوء.. وهمس:

- لقد كانت رحلتي مع الأستاذ (لوت) شاقة حقًا!

* * *

٦ - الكهوف..

تعالى صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر.. فوقفنا نؤديها فوق الرمال التي بللها الندى، في حين شرع البروفسير يراجع أوراقه وخرائطه...

كانت حالته المعنوية قد تحسنت إلى حد كبير، حين عرف أن (جبريل) - أو (جبرين) - الذي كان دليل (هنري لوت) في رحلته الشهيرة، سيكون دليله هو أيضًا..

و (جبرين) هو النطق الأوروبي المتعثر لكلمة (جبريل).. كما أنه تحريف لكلمة

(جبارين) البربرية، التي يسمون بها الجبال...

فرغت من صلاتي مع رجال (التبو)، فاتجهت متثاقلًا إلى البروفسير وجلست جواره على الرمال.. ثم ابتلعت ريقي.. وسألته:

- بروفسير... إذا كان هناك من قام بهذه الرحلة ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ودرسها.. فما الذي تعتزم أن نضيفه نحن؟!

قال الرجل دون أن ينظر لي (لأنه لم يعد يطيق رؤيتي منذ سقطت الطائرة):

- إنني أبحث عن الكهف الذي لم يدخلوه.. عن الحجر الذي لم يقلبوه..

ثم إنه فتح أمامي إحدى الخرائط، وأشار بقلمة إلى مجموعة من رسوم الكهوف المبسطة.. وكانت حول أحدها دائرة باللون الأحمر..

- هذا الكهف الصغير التافه مثلًا.. لم يحاول أحدهم دخوله، لأنهم كانوا غارقين في تدوين ما رأوه بالكهوف الكبرى وكلهم انبهار.. بالإضافة إلى أن مدخله مسدود نتيجة انهيار قديم..

- وهذا هو الكهف المختار؟

- لنقل إنه أحد الكهوف المختارة..

كان الفجر ينشر عباءته الدموية فوق الصحراء.. وأنسامه العذبة - الباردة قليلًا- تدغدغ وجوهنا.. حين اتجهنا للجمال وشرعنا نركبها..، وكالعادة....

هأنذا أقذف.. أمامًا.. خلفًا.. أمامًا.. وأخيرًا!!
على أن الجمل كان متعكر المزاج قلقا إلى حد غير عادي.. وشعرت أنه سيقذفني من فوقه في أية لحظة.. ولشدة دهشتي لمحت أحد رجال (التبو) يشعل سيجارة - سيجارة من سجائرهم الملفوفة يدويًا - ويدسها في... منخار الجمل!..، أما الأغرب فهو أن الجمل شرع يستنشق الدخان في نهم.. وبدأ يسترخي قليلًا..!..
قال لي (محمود) مفسرًا....
- إن هذه الجمال مدمنة تدخين.. ولابد لها من سيجارة يوميًا!.. هذا هو ما يعرفه كل (جمّال) يجيد عمله.

إن غرائب هذا العالم لا تنتهي.. ويبد أنني سأظل أراها وأندهش، حتى اللحظة التي أغمض فيها عيني للأبد..، على أنني لا أحب كثيرًا من يفسد فطرة الله في الحيوانات العجماء على سبيل الدعابة. كالكلب الذي يلعق الويسكي والشمبانزي الذي يدخن السيجار.. والجمل الذي يهوى التبغ**!**..

لكن الوقت ليس مناسبًا للانضمام إلى جمعية (الرفق بالحيوان)**.!**

لقد حان الوقت كي نبدأ مسيرتنا إلى المجهول..

❋ ❋ ❋

إنها الحقيقة.. الحقيقة التي ستهب العلم مرونة لا تقاس..

❋ ❋ ❋

حين يريد (باولو جيرالدي) شيئًا فإنه يناله.. وليس على الحاضرين إظهار امتعاضهم..!

❋ ❋ ❋

لو لم نر ذئابًا لشعرت ان هناك خدعة ما..

❋ ❋ ❋

(أحمد)!.. إلى أين أنت ذاهب؟.. يا لك من معتوه!.. ستسقط في إحدى الحفر ويتهشم وجهك..

* * *

ها هي ذي الهضبة تستلقي في استرخاء أمام أعيننا.. وها هم (التبو) أولاء يشيرون لها ويتبادلون الكلام بلهجتهم التي لا نفهمها.. في حين يدور (جبارين) حولها بجمله في تؤدة..

أصوات الجمال وهي تبرك على الأرض.. ثرثرة الرجال.. عقرب ينسل بعيدًا عن أقدامنا باحثًا عن مكان أكثر هدوءًا

- احترسوا من الأفاعي لأن لدغتها قاتلة!

قالها (محمود) وهو يتحسس موطئ قدميه..، والواقع أن تحذيره كان في موضعه لأن المكان كان خطيرًا حقًا..

بشيء من تدقيق البصر تدرك أن تحت كل حجر شيئًا ما.. لابد أن تكون هناك أفعى مسترخية ترمقك في كسل.. أو عقرب.. أو سحلية شنيعة المنظر.. أو شيء ما لا تدري ما هو لكنه حي**!!**...

إن الصحراء كابوس حقيقي.. أنشودة الجفاف والخشونة والقسوة.. وكل ما يحيا فيها هو جاف خشن قاس.. حتى هؤلاء (التبو) المهذبون..

كنا قد وصلنا إلى مجموعة من الكهوف الصخرية المنحوتة بفعل الطبيعة في جسم الهضبة.. وكان (جبريل) يتفقدها بعين

خبيرة وفتور كأنها صديق قديم لا يثير اهتمامه...
أما البروفسير فقد بدأت أشعر بالقلق من تدهور حالته العقلية.. كان يصرخ.. ويرقص.. ويحدث الجميع بالإيطالية التي لا يفهمها سوى (محمود).. كان انبهاره يفوق الوصف، خاصة حين رأي علامات محفورة على مداخل الكهوف.. علامات رسمها من سبقونا.. رجال (هنري لوت) ورجال الرحال (برينان)...
استعد البروفسير ليدخل الكهف الأول، لكن (جبريل) الحاذق أوقفه في حزم.. وأمسك بحجر.. وطوح ذراعه ليلقيه في الداخل.. سمعنا صوت شيء يتحرك ثم ساد الصمت...

- إنه حذر - قال (محمود) - يريد التأكد من إبعاد الأفاعي.. وهذا حقه بلا شك..
وظهر مشعل أو اثنان. وبدانا التقدم داخل الكهف في بطء شديد.. ظلالنا تسبقنا وتتبعنا.. ورائحة القدم والرطوبة تفعم أنوفنا.. مسيرة رهيبة لبقعة من النور المتراقص بين جدران الكهف.. إن أي شبح يسكن هذا المكان كان سيموت ذعرًا لو رآنا..!
- لا أرى شيئًا أين هذه النقوش؟
قال البروفسير وهو يرفع ضوء بطاريته إلى أعلى:
- إنها في كل مكان.. ألا تراها؟!

* * *

هي لغز الألغاز.. سر الأسرار.. المرآة المسحورة التي تقودنا إلى عالم آخر له مقاييس مختلفة..

❋ ❋ ❋

منذ مائتي قرن كانت هناك حضارة يعرف أهلها معنى الرسم!

❋ ❋ ❋

شرع البروفسير يئن.. يئن كمن يتلوى في الجحيم.. العرق يغمر جبينه وكل جوارحه ترتجف..
وعلى ضوء البطارية والمشاعل، كنا نرى أغرب ملحمة رآها ورسمها إنسان..

هل ترى معي هذه الأجساد الطائرة.. الملتحمة.. المتشابكة..؟.. رجالًا يجرون نحو أجسام أسطوانية غامضة.. ورجالًا كأنهم يرتدون خوذات لامعة وثيابًا فضفاضة.. نساء شقراوات ضخام الأجساد، يطرن ويرمقهن في دهشة بشر سود ضئيلو الحجم..

وهذا؟.. هذا رأس يخرج منه قرنا استشعار.. الضوء يتراقص على الرسوم التي توشك أن تتحرك... بل هي تتحرك..

أما هذا... لأعلى قليلًا.. لأعلى.. يمينًا.. نعم!.. هو ذا.. كأنهم رجال يرتدون زعانف الضفادع البشرية ألا ترى ذلك؟

أي خيال محموم وقف هنا منذ مائتي قرن، كي يسكب على هذا الجدار

الصخري أسراره المجنونة؟

أية عبقرية - في فجر التاريخ - آثرت أن تترك الرمح كي ترسم..؟.. ولأي غرض..؟..

إن هذه النقوش رائعة الجمال لكنها - في رأي - لا تحمل من أسرار الكون، أكثر مما تحمله خطوط طفل جامع الخيال، على هوامش كتبة المدرسية..!..

همس (محمود) في أذني محاولًا ألا يفسد جو الرهبة العام:

- ما رأيك؟..

تأكدت أن البروفسير لن يسمع نبرة اللامبالاة في صوتي.. وقلت:

- عبقري..!

- لا أتحدث عن جودة الصور.. ولكن أتحدث عن معناها..!

- هل تريد معنى لا وجود له؟.. إن الأمر كله لا يزيد على رجل كهف يجيد الرسم..

- ما زلت مصرًا..؟

- بالطبع..

في هذه اللحظة كان البروفسير قد أخرج كاميرا ذات فلاش وشرع يلتقط عشرات الصور لهذه الرسوم الحائطية.. حوالي خمسة آلاف رسم صغير حاول أن يلخصها في فيلمين أو ثلاثة.. ولاحظت - في خبث - أنه نسي أن يزيل غطاء العدسة، مما جعلني أشعر ببهجة وحشية.. لن ألفت نظره لهذا، خاصة وأنه كان قد

انتهى بالفعل من تدمير أفلامه الثلاثة حين لاحظت ذلك..

إلا أنني - بعد دقائق - شعرت بوخز في ضميري.. فأشرت إلى العدسة بكياسة.. أطلق سبة إيطالية وشرع يعيد تعبئة الأفلام - التي لا بد أنها ظلت خامًا - ويصور المشاهد مرة اخرى..

بعد ساعة بدأ الملل يقتلني..

اختلست نظرة إلى رجال (التبو)، فوجدتهم يقفون ساكنين كالصخر، وعلى وجوههم أمارات عدم المبالاة.. إن الأمر بالنسبة لهم لا يتجاوز القيام بمهمة روتينية قاموا بها مرارًا.. وهم - مثلي - لا يرون أية روعة في هذه الرسوم، سوى أنها

تجذب العلماء المخبولين الذين يدفعون أغلى الأثمان..
والآن نترك هذا الكهف الممل لندخل كهفًا آخر.. ونترك ذلك الكهف الممل إلى كهف أكثر مللًا..
لم أعد أتحمل.
إن هذه المشاهد المكررة تتداخل في ذهني تمامًا.. وكلها تتشابه...
وكلها لا تثير اهتمامي..
والبروفسير يزداد حماسنا وجنونا.. و(التبو) يزدادون لا مبالاة.. و(أحمد) يزداد إرهاقًا..، إلا أننا فرغنا - أخيرًا - من أكثرها..
حتى وصلنا إلى الكهف الصغير الذي لم يدخله أحد.. الكهف الذي سدت فتحته

بصخرتين كبيرتين..، تقدم البروفسير وطفق يتفحص الصخرتين في فضول.. ونظر للرجال مستفهمًا كأنه يطلب العون..

- لا...!

قالها (كريم) في صرامة وحزم، بشكل لا يدع مجالًا للمزيد من الإلحاح أو الأسئلة.. إن لديهم سببًا قويًا يمنعهم من تركنا - أو مساعدتنا - لنحرك هذه الصخور..

- ولكن هذا الكهف..

- لا...!

- لقد دفعت أجركم كي....

- لا...!

قالها (كريم) وهو يبتعد معلنًا انتهاء كشوف هذا اليوم ولم يكن في وسعنا سوى أن نمضي خلفه مبتلعين أسئلتنا..

* * *

كان الليل قد حل والرؤية غدت عسيرة نوعًا.. الموجودات قد بردت مكتسبة بذلك اللون الأزرق الغامض ؛ حين جلسنا حول النار نلتهم الخبز واللبن الرائب والتمر..

كنت قد خلعت حذائي فأخذت أصابعي ترقص رقصة الألم.. كأن جريان الدم فيها يمزقها.. والانتفاخ يتزايد..

أما البروفسير فلم يخلع حذاءه.. ولم يأكل، فقط عيناه الزرقاوان تلتمعان في ضوء اللهب، تحت وطأة فكرة مجنونة تحاصره..

ظهرت آلة وترية عجيبة، تشبه كمانًا ذا وتر واحد أو (ربابة) أمسك بها واحد من

الرجال وبدأ يعزف.... فهمست في أذن (محمود):

- حتى هؤلاء لهم موسيقا؟

- ولم لا؟.. أليسوا بشرًا؟.. هل قابلت في حياتك وأسفارك بشرًا لا يعزفون ويغنون، حين اجتماعهم حول النار ليلًا؟..

- وهذه الآلة؟.. إنها تشبه الربابة في ريف مصر..

- اسمها (الأمزد).. وستسمع منها عجبًا..

بالفعل بدأ الرجل يغني بصوت رخيم.. وبلهجة لا أفهمها..، أغنية حزينة تتحدث - بالتأكيد - عن الوحدة.. عن حب ضائع وحبيبة قاسية.. عن الصحراء.. عن ديار الأحباب.. عن كل شيء حزين يعتمل في

صدرك، ولا تجد الجرأة كي تفصح عنه حتى لنفسك..
انهما دمعتان.. نعم.. دمعتان تنحدران على خدي من هذه الأغنية البربرية، التي أسمعها في الصحراء بهذه الكمان الكسيحة..
وبين دموعي شعرت بالبروفسير يميل علي ليفسد كل شيء:
- الصخرتان!
- ما لهما؟.. أي صخرتين؟
- الصخرتان على باب الكهف!.. لم يكن هذا انهيارًا جيولوجيًا، بل وضعهما إنسان عنوة ليسد المدخل..
- ولماذا يفعل ذلك؟...

- ثمة شيء لا يريد لنا أن نعرفه، أو شيء لا يريد له أن يخرج.. لهذا ينبغي أن نعرف كنه هذا الشيء..

وتقلص وجهه في تصميم:

- يجب أن ندخل هذا الكهف.... الليلة!

* * *

٧ - الكهف الذي لم يدخلوه..

حينما نام الرجال.. تدثرت بالغطاء الصوفي الذي أعطوه لي، وتكورت على

نفسي جوار النار.. إن برد الصحراء قاس.. قاس كنصل الخنجر..

لابد أن الساعة كانت الواحدة بعد منتصف الليل، حين شعرت بيد البروفسير الحازمة تهزني هزًا.. وعلى ضوء القمر الذي لم يكتمل بعد، لمحت وجهه القلق المتلهف.. كدت أتكلم لولا أن سدت كفه فمي.. وهمس:

- شش!.. إنني ذاهب مع (محمود) و(أحمد) لرؤية الكهف.. فهل ترغب في أن ترافقنا..؟.. لا إجبار هنالك

همست والنوم لم يزل يداعب جفوني:

- ولكن لماذا لا تنتظر للصباح؟

- لأن الرجال سيمنعوننا من ذلك..

في ثوان أعدت تقييم الموقف.. سنكون ثلاثة - بل أربعة - ولن يقتضى الأمر سوى بضع دقائق، لأن الكهف جوارنا.. وبالطبع هو ضحل كباقي الكهوف.. فلم لا أفعل ذلك؟!.. على الأقل سأرضي فضولي، وأنفي تهمة الجبن التي ألصقها الإيطالي بي..

ثم إن هناك متعة غريزية ما، في اكتشاف الأماكن الممنوعة.. متعة كامنة في الوجدان الإنساني من فجر التاريخ.. هل تذكر قصة ذي اللحية الزرقاء، الذي أهدى زوجته قصرًا به تسع وتسعون حجرة، يمكنها أن تتنقل بينها كما تشاء؟.. لقد منعها من دخول الحجرة المائة.. لهذا لم تعد ترى في القصر سوى هذه الحجرة

المائة.. وعلى الرغم من تحذيره دخلتها، فماذا رأت وماذا وجدت؟!...

إنه ولع الإنسان بالمجهول.. الولع الذي لا يرتوي أبدًا...

وهكذا - وكما توقعتم - حشرت قدمي - اللتين انتفختا بفعل الراحة. في فردتي الحذاء.. ونهضت في خفة معهم...

إلى الكهف الأخير..

❋ ❋ ❋

وقفنا أمام الكهف.. مدخله مسدود بصخرتين كبيرتين.. وثمة كتابة محفورة بحروف غريبة على إحداهما.. على ضوء الكشاف شرعنا نتأملها.. ونتساءل.. قال البروفسير وهو يلهث انفعالًا:

- إنها أبجدية الطوارق.. حروفها مأخوذة من اللغة القرطاجية القديمة..
- وماذا تعنى؟
- لا أدري.. لكنه تحذير للداخلين طبعًا..!
ثم إنه أشار لنا كي نتعاون على تحريك إحدى الصخرتين..
وتكاتفنا نحن الأربعة وشرعنا.. نجاهد.. نجاهد.. نجاهد.. شفاهنا السفلى تنزف من أثر أسناننا.. وظهورنا تتشقق.. وعروقنا تتفجر.. لا بد أن الدم ينزف من شعيرات عيني الآن.. ولا بد أن عضلات ذراعي تتمزق..
هيلا هوب!.. هيلا هوب!.. إنه يتحرك..!.. لا تتراخوا يا شباب.. هيا!.. هيا!... (أحمد)!.. أنت تتظاهر بالمعاونة..

وأنت تركز الثقل ناحيتي..**!**.. هوب.. هوب... مستحيل.. لن نتمكن أبدًا.. إنني سأصاب بانزلاق غضرو.... لقد نجحنا**!**.. أخيرًا..**!**..

أخيرًا مالت الصخرة على جانبها، وغدت موطئًا لأقدامنا يمكننا الصعود عليه ودخول الكهف.. إذن هيا بنا..

- لحظة**!**..

قالها (محمود) وهو يقذف حجرًا إلى داخل الكهف.. فهو لم ينس الدرس بعد.. وانتظرنا دقيقة.. ثم شرعنا نثب فوق الحجر إلى الداخل..

وأضأنا بطارياتنا لأن الظلام كان دامسًا.. دامسًا..

* * *

كانت رائحة العطن تملأ المكان..

ومن السقف كانت الصخور الهوابط تتدلى، كأنها أنياب وحش خرافي أطبق علينا.. حاولت أن أبعد هذه الفكرة من خيالي..

أما الجدران فكانت صخورًا.. صخورًا عادية لا رسوم عليها.. مجرد صخور بلهاء في كهف ضيق كريه الرائحة..، وبالطبع كانت خيبة أمل البروفسير هائلة، وازداد وجوم وجهه، كأنه كان يتوقع أن يجد سر الحياة في صندوق ذهبي داخل الكهف...

أخذ ضوء بطارياتنا يتحرك ببطء على الجدران، بحثا عن شيء ما دون جدوى.. لقد نسي ذلك الفنان الغابر أن يضع بصماته على هذا الكهف.. أو لعله سئم الأمر برمته..

وفجأة همس (محمود) في عصبية:

- صه!.. هل سمعتم هذا؟

- ماذا؟

تصلب قليلًا.. ثم استرخت عضلاته.. وهمس:

- لا شيء....

ومضينا نواصل جولتنا عبر الجدران..

عجبًا..!.. أكاد أقسم أنني سمعت صوتًا غريبًا أنا الآخر.. لكن الهستيريا الجماعية

حقيقة لا مراء فيها.. والايحاء قوة كاسحة...

- انظروا!.

صاح البروفسير في لهفة وهو يشير إلى شيء ما في أحد الأركان، فهرعنا إليه.. كان يشير إلى الأرض بإصبع مرتجفة..

إنها حفرة.. حفرة حقيقية.. وعلى ضوء بطارياتنا المرتجفة استطعنا أن نرى درجات.. درجات سلم هابطة، حفرت بعناية لا بأس بها!..

ودون كلمة أخرى شرع البروفسير يتحسس الدرجات بقدمه هابطًا في الحفرة، وهو يحرك ضوء بطاريته لأعلى وأسفل..

مددت عنقي من الفتحة وصرخت بصوت مرتجف:

- أ.. بروفسير.. ماذا تفعل؟
صاح في حنق:
- يا له من سؤال!...
- لكن الوقت ليس مناسبًا.. لا توجد معنا حبال ولا أسلحة ولا....
لكنه لم يرد.. وواصل النزول منبهرًا.. هناك مصيبة ستحدث هاهنا.. نعم.. أنا واثق من ذلك بلا أدنى مبالغة..
صرخ (أحمد) في هلع:
- إنه مسحور!.. أنا متأكد من ذلك!.. إن شيئًا يناديه!...
انتصب شعر رأسي من هول الفكرة.. ونظرت له في غيظ.. فليس الوقت ملائمًا لهذه الملاحظات العبقرية.. أما (محمود)

فبدت عليه علامات التفكير.. قطب جبينه ثم همس لي وهو يركع على حافة الحفرة:
- هل تعرف فيم أفكر؟.. إلام تؤدي هذه الدرجات؟.. ومن صنعها؟..
- ليست لدي أدنى فكرة...
ابتسم في خبث.. والتمعت نظرة شيطان يحلم في عينيه.. ماذا؟.. هل هو حقًا يعتقد ذلك؟.. كلا.. إن هذا جنون..
- (محمود)!.. لا تقل إنك تعتقد..
- أنا لا أعتقد.. أنا متأكد!
ابتلعت ريقي في عصبية.. إن الفكرة مرعبة لكنها واقعية.. هل هذه الدرجات - التي صنعتها يدا إنسان ببراعة - تقود إلى عالم ما تحت الأرض؟.. هل هذه الدرجات تهبط إلى (الأطلنطس)؟!!..

قلت بصوت متحشرج:
- ولكن لا دليل.. على ذلك....
قال بنفس الابتسامة المرعبة وهو يصلح من شأن شعره:
- يوجد أكثر من دليل.. الرسوم العجيبة التي لا يمكن أن يرسمها رجل كهف متخلف.. الكهف المسدود بصخرتين.. رعب رجال (التبو) والخرافات التي لا بد أن أهلهم قد حشروها في رءوسهم عن (سكان ما تحت الأرض)... لهذا سدوا المدخل والمخرج الوحيد إلى هذا العالم.. وتدريجيًا تحول مدخل هذا الكهف إلى (تابو) له قدسية المحرمات الدينية..
- إذن لهذا السبب لم يدعوا (رينان) و(لوت) كي يدخلوا..

- بالتأكيد...!.

نهضت على ركبتي، وشرعت أنفض الغبار الذي تراكم على ركبتي بنطلوني.. وقلت في توتر وأنا أشعل سيجارة:

- والبروفسير!.. يجب أن نمنعه من النزول...

- بل من الحكمة أن نكون معه..!.. الله وحده يعلم ما يوجد تحتنا..!.

ثم بدأ يستعد للنزول.. واستطرد متسائلًا:

- هل معك مسدسك؟.. نعم؟.. هذا نبأ طيب.. إذ أننا لا نملك أية أسلحة.. هل ننزل..!.

وبدأ يهبط في تؤدة وأنا خلفه.. ثم (أحمد)...

هل كان من واجبنا أن نترك أحدنا ليراقب الكهف بينما نهبط نحن؟!.. لا أدري.. لا أدري حقًا..، ولكن لا تلومونا.. فإننا لم نكن نعلم بتاتًا ما ينتظرنا بعد هذه المغامرة الخرقاء..
لم نكن نعلم بتاتًا..

* * *

لم نكن قد هبطنا أكثر من مائة درجة حين دوت الصرخة.. صرخة فزع عارمة قادمة من أسفل.. ثم فوجئنا بالبروفسير يصعد السلم تجاهنا، وهو لا يكاد يرى ما أمامه.. أوقعني.. واصطدم بـ (أحمد).. ثم سقط بدوره جالسًا على إحدى الدرجات،

وشرع يعول كالفتيات المراهقات وقد تقلص وجهه..

كان يتحدث بالإيطالية كأنه مدفع رشاش مجنون.. ووقف (محمود) جواره يتابع كلماته وقد احتقن وجهه.. تساءلت في جزع متوجس:

-(محمود)!.. ماذا يقول؟..

لم يرد الفتى وظل يتابع الكلمات في اهتمام..

- (محمود)!.. تكلم بالله عليك!..

قلتها وأشعلت سيجارة أخرى.. وبدأ السعال يتسرب إلى صدري..، قال (محمود) وهو لا يفارق البروفسير بعينيه:

- إنه خائف!

- يا لك من عبقري!.. وهل هذا يحتاج لمترجم؟!..
- ويقول إن (الشيء) قادم.. ويأمرنا أن نهرب..
- وما هو هذا (الشيء)؟
- لم أفهم في الواقع.. إن حالته كما ترى وكلامه يفتقر لأي ترابط..، ثم إنه نظر لساعته على ضوء بطاريته.. وغمغم:
- على كل حال لقد صار الفجر دانيًا.. ومن الحكمة أن نعود قبل أن يصحو الرجال لصلاة الفجر ويعلموا بمغامرتنا هذه..
قال (أحمد) وهو يمسك بيد البروفسير.. وينهضه:
- ثم إن حاله لا تسمح بالتمادي..

وهكذا - ولحسن حظى ورحمة بأعصابي - عدنا إلى الكهف.. وخرجنا منه ثم تعاونا على إرجاع الصخرة إلى أقرب وضع ممكن لما كانت عليه.. لكن الفتحة ظلت واسعة برغم كل شيء..

كان ضوء القمر يفترش الرمال حين عدنا إلى المعسكر محاولين أن نمنع البروفسير من الصراخ الهستيري.. ولحسن الحظ كان الرجال جميعًا نائمين.. إن هؤلاء القوم يتمتعون بضمائر نقية والحق يقال!..

رقدنا فوق الرمال خالعين أحذيتنا، وشرعنا نرفع أصوات شخيرنا قدر الإمكان.. على أننا - بعد عشر دقائق - لم نعد في حاجة للتصنع.. وذبنا في كأس النعاس شهية المذاق..

في الرابعة صباحًا شعرت بيد أحدهم تهزني لتوقظني كي ألحق بصلاة الفجر..
وحين بزغت الشمس لم نكن نتوقع أن تكون حال البروفسير سيئة إلى هذا الحد..

* * *

٨ - النداء الغامض..

طيلة النهار ظل البروفسير يهذي ويصرخ، ويردد عبارات تهديد إيطالية يرهب بها شيئًا ما..

ما الذي رآه هذا الرجل؟.. وما هو ذلك (الشيء)؟.. إن حالته العصبية سيئة بلا جدال لكني لا أميز سببًا طبيًا واضحًا لذلك.. ولا أستطيع أن أعاونه.. كل ما يمكنني هو أن أدس الطعام والماء دسًا في فمه مع بعض أقراص الـ (فاليوم) المهدئة..، وأن أزيد معدل استهلاكي من السجائر إلى أرقام فلكية.. لا أحب هذا.. لكني متوتر.. متوتر..

أما (التبو) فكانوا جالسين حولنا في وجوم.. يرمقون المشهد من عيونهم الحادة التي لا تطرف.. إن هؤلاء القوم أشداء أمناء لكنهم لا يتعاطفون معنا بتاتًا، ولا يحملون لنا أية مودة.. أقسم على هذا... إنني لفي أمس الحاجة إلى أن أذهب بعيدًا

عن كل هذا.. لا أريد أن أرى حولي رمالًا ولا كهوفًا ولا (تبو) ولا أساتذة جامعة مجانين.. لكن ما باليد حيلة..

إن قطار (القاهرة) لا يمر - للأسف - جوار هضبة (تسيلي)!

* * *

جاءني (كريم) ومعه اثنان من الرجال، ووقف أمامي هنيهة.. ثم تربع أمامي على الرمال وشرع يتأملني قليلًا.. فابتسمت في حرج..

- سيجارة؟!..

قلتها مادًا يدي بالعلبة متوددًا.. لكنه ظل ثابتًا يرمقني بعينية الحادتين الثاقبتين.. شعور مزعج حقًا!.. لا أذكر إن كانت

كلمة (سارتر) القائلة إن الجحيم هو عيون الآخرين معروفة لي وقتها.. لكنني كنت بحاجة إليها دون شك لأعبر عما أحسه... سمعته يقول في رزانة:

- هل دخلتم الكهف أمس؟...

- هه؟!...

- أقول: هل دخلتم الكهف أمس؟

ماذا أقول؟.. هل أكذب؟.. لكنه بالقطع لديه ما يدعوه للشك، وما أكثر ما نسيناه في هربنا المتعجل فجر اليوم.. آثار أقدامنا والصخرة التي لم تعد أبدًا لمكانها.. و... و...

من الحكمة إذن ألا أفترض الغباء في هؤلاء القوم...

- نعم دخلنا..!..

ساد الصمت لوهلة.. وبدا نوع من الاستسلام القدري في عيونهم.. ثم قال (كريم) وهو يتناول السيجارة منى وينزل اللثام عن فمه:

- كنا واثقين من ذلك...

وأشاروا لي كي أتبعهم... سرنا في صمت فوق الأحجار إلى حيث مكان الكهف.. الكهف الذي فررنا منه فرارًا فجر اليوم.. وهناك عند المدخل وقفنا نتأمل الأرض..

لم يكن هنالك شك.. إن آثار أقدامنا واضحة جلية..

أما ما هو أكثر غرابة وإثارة للتوجس فهو آثار أخرى.. أكبر بكثير من آثارنا وأعمق بكثير منها، آثار أقدام مخلبية

تنغرس في جشع في الأرض.. ثم إنها تبتعد رويدًا رويدًا حتى تذوب في الرمال فلا تعرف لها اتجاهًا..

رفعت عيني متسائلًا.. فوجدت في عيونهم نظرة جعلت القشعريرة تسري عبر نخاعي الشوكي..

* * *

قال لي (كريم) في شيء من الضيق:

- والآن.. ماذا تقول؟

- عن أي شيء..؟

نفث الدخان.. وتربع فوق صخرة مريحًا بندقيته على ركبتيه:

- لقد صحا (العساس).... غادر سجنه الطويل..

- العساس؟

- حارس الكهف الذي لم يزعجه مخلوق منذ مائتي قرن!.. هكذا أنذرنا آباؤنا وآباء آبائنا.. والويل كل الويل لمن يجرؤ.. وهأنتم أولاء قد جرؤتم..!

كان يتحدث دون غضب.. قد لا أكون مبالغًا إذا ما قلت إن لهجته كانت تحوي شيئًا من الحنان الرفيق.. كأن ما سيحل بنا كاف ولا يحتاج إلى جرعة إضافية من التوبيخ..

نفث الدخان .. وتربع فوق صخرة مُريحًا بندقيته على ركبتيه :

« لقد صحّا (العسّاس) .. ! .. غادر سجنه الطويل » ..

قلت له في فضول:
- ومن أين جاء هذا (العساس)؟
أشار بأصبعه إلى أسفل.. يعني ما تحت الأرض.... فتساءلت:
-.. ومن هؤلاء الذين يعيشون هناك..؟
هز رأسه.. وواصل التدخين..
-.. إذن أنتم لا تعرفون.. لا أحد يعرف.. فقط ترون آثارهم على جدران الكهوف.. أليس كذلك؟
هز رأسه أن بلى.. وكور سيجارته ورمي بها بعيدًا.. ثم حمل بندقيته ونهض في تثاقل..
ولم ينس أن يقول لي قبل أن يبتعد:

- ستموتون..!.. وربما نحن معكم.. كذا قال الآباء...!

❋ ❋ ❋

ينبغي أن أشعل الفتيل.. ولكن أين قداحتي؟..

❋ ❋ ❋

أبدًا لا يوجد ذئب يهشم عنق الضحية ويديره في الاتجاه العكسي..

❋ ❋ ❋

هأنتم أولاء قد جرؤتم...!

* * *

كانت الشمس تنحدر. غربًا حين بدأت حال البروفسير تتحسن..

كان (محمود) متربعًا جواره يواصل وضع الكمادات على جبينه دون مبرر في الواقع - فهو لم يكن محمومًا - سوى الرغبة في عمل شيء ما..!..

رفع البروفسير رأسه.. وتربع جالسًا..

ركعت على ركبتي جواره.. وهنأته على نجاته، لكن رد فعله كان مدهشًا.. إذ رمقني في حدة واستدار يسأل (محمود):

- عم يتكلم هذا المعتوه؟!..

ماذا؟.. هل فقد ذاكرته أخيرًا؟.. ولكن لا.. إنه ليس من هذا النوع طاهر السريرة

الذي ينسى.. سألته في رصانة:

- بروفسير.. أنت قد مررت فجر أمس بخبرة مروعة.. أليس كذلك؟ استشاط غضبًا.. وصرخ في (محمود) والرذاذ يتطاير من فيه:

- ألن تقصوا هذا المتخلف عقليًا عني؟!..

وشرعنا نهدئ من روعه.. ثم بدأنا نستجوبه في هدوء..

عرفنا أنه يتذكر كل شيء.. نزوله للحفرة.. وكل ما فعل، لكنه لا يذكر أن هناك شيئًا معينًا أثار فزعه..

- ربما هو خوف الأماكن العميقة - قال البروفسير محاولًا إيجاد تبرير منطقي لذعره فجر اليوم -.. نعم.. لابد أنه كذلك.. لقد استبد بعقلي وجعلني مشلول الفكر..

تبادلت و(محمود) نظرة عدم اقتناع..

إن خوف الأماكن العميقة لا يحدث فجأة.. ولا يسبب حالة من الهلوسة تستمر نهارًا كاملًا.. دعك من أن من يبتلون بهذا الخوف لا يتحدثون عي (شيء) رأوه.. بل هم يعلمون تمامًا أن خوفهم بلا أساس.. إما أنها حالة فقدان ذاكرة (محددة) من التي ينسى فيها المريض شيئًا بعينه ولا ينسى سواه.. وإما أنه صادق.. وإما أنه يكذب..

ولكن في أي شيء يكذب؟..

يكذب في رؤية الشيء..؟ أم يكذب في عدم رؤيته؟.. أم هو يكذب في الأمرين؟..

لن يكف هذا البروفسير المجنون عن إثارة حيرتي وذهولي..

* * *

والآن يزحف ليل الصحراء الكئيب ليدس أنفه في قصتنا..

وللمرة الـ... ربما للمرة الألف.. تشتعل النار ليجلس حولها (التبو).. ولكن هذه المرة دون غناء ودون محادثات.. فقط الوجوم والصمت..

قال (كريم) بصوت ينذر بكارثة (وكان قد شرح الخطر علانية للجميع).

- غدًا يجب أن نرحل..

صاح البروفسير محتجًا (وكان قد استرد طباعه السيئة):

- لكننا لم ننته بعد.. و....

- غدًا سنرحل!..

ثم إنه شرع يعابث ألسنة اللهب بطرف سيفه.. وقال:

- أما الليلة فلابد من الحراسة..

- سننظم ورديات لهذا الغرض..

- لا أحد يعلم ما قد يحدث.. لهذا أوصيكم بالحذر..

ثم أشار إلى معلنًا أنني سأكون الأول**!**.. ثم يأتي (أحمد) بعدي...

وبعدها واحد منهم.. ثم (محمود).. ثم واحد منهم.. لم أفهم الحكمة من هذا الترتيب، ثم عرفت أنهم اختاروا الأكثر مللًا - أنا بلا فخر - كي يسهر الساعات الأولى السهلة.. ثم يأتي دور أقوياء التحمل منهم...

ذلك التدبير الذي لا أعتقد أنهم جانبوا الصواب فيه..

* * *

مضت ساعات حراستي الثلاث في سلام.. فيما عدا الخواطر السوداء التي ظلت تتحرك فوق رمال الصحراء هنا وهناك.. وشاب لها رأسي..

إلا أن خاطرًا باسمًا راودني وأنساني كل هذا التوتر..

لو أن المرحومة أمي رأتني... من العسير أن تتصور أم أن ابنها ساهر الآن جوار النار في جنوب (ليبيا)، يحرس قافلة من الطوارق من وحش أسطوري!.. أبدًا

لن تتخيل هذا حتى لو اتسع خيالها للمحيط ذاته!
إنني لكائن عجيب.. عجيب!!..

* * *

انتهت ورديتي فأيقظت (أحمد) كي يتولى الحراسة..
وجوار النار تكومت كقط كبير مرتقبًا تلك اللحظة السعيدة التي يأتي فيها النوم بعباءته السحرية ليدق بابي...
لكن ذلك الضيف المشتهى لم يأت..
شرعت - من عين نصف مغمضة - أرمق (أحمد)، وقد جلس جوار النار شاردًا بنظراته عبر المجهول.. عيناه ساهمتان

والنار تترقرق بظلالها على صفحة وجهه..
ولم أعرف - وكيف لي أن أعرف - أية تأثيرات مغناطيسية تعمل عملها المدمر في روحه في هذه اللحظات.. لقد كان غائبًا عن العالم غارقًا في أمواج بحر لا وجود له.. والأمواج تعلو.. تعلو..
ساعة كاملة أغيب عن الوعي ثم أصحو لأجده ساهمًا كما كان.
بدأت أشعر بأن شيئًا ما ليس على ما يرام.. ووضعت نظارتي على أنفي.. إن هذا الفتى لم يبدل وضعه طيلة ساعة كاملة..
ثم النظرة.. هذه النظرة الجامدة لا تريحني تمامًا...

فلأنهض وأر ما دهاه.. ولكن مهلًا!.. إنه ينهض.. بالفعل ينهض.. في تؤدة يقف على قدميه، ثم يبدأ السير فوق الرمال خارجًا من دائرة الضوء!.. إلى أين هو ذاهب؟.. ربما لقضاء حاجة.. لكن لا.. سأتبعه عن كثب وأحاول أن أناديه..

كلا.. أن هذه المشية المتصلبة والوجه الجامد، يوحيان لي بالمشي في أثناء النوم.. ومن الخطر أن أحاول إيقاظه.. سأترك الأمر كي يتم تلقائيًا حين تفرغ شحنة التوتر النفسي التي جعلته ينهض...

كان يتحرك في الظلام بسلاسة غير عادية.. أما أنا فكنت أتعثر وأنهض.. وأطلق اللعنات ثم أجد في إثره..

(أحمد)!.. إلى أين أنت ذاهب أيها الأحمق؟.. يا لك من معتوه!.. ستسقط في إحدى الحفر ويتهشم وجهك..

كنت ألهث.. وأتحدث من بين أسناني.. في حين كان هو يتقدم ويجرني خلفه بعيدًا عن النار التي غدت نقطة بعيدة متوهجة.. والصحراء تمتد مظلمة بلا نهاية...

كان هذا هو الوقت الذي سمعت فيه عواء الذئب.. من بعيد.. عميقًا كئيبًا مليئًا بالوحشة والتشاؤم.. ذئب وحيد..

وتوقفت...

لقد حان الوقت كي أتصرف بشيء من الحكمة.. سأعود وأوقظ الرجال، ثم نتعاون في البحث عن هذا المخبول قبل أن تمزقه

الذئاب.. لن أفيده في شيء إذا ما مزقتني الذئاب معه...

وإلى المعسكر عدت جريًا...

وشرعت أوسع (محمود) و(كريم) هزًا وركلًا حتى استيقظا.. وحكيت لهما - في عبارات مختلطة - كل ما حدث...

كان هلعي ولهاثي أكبر دليلين على فداحة ما رأيت.. لهذا نهضا مسرعين ومعهما من أيقظته الضجة من الرجال..، وعلى ضوء المشاعل نقتفي الآثار الواضحة على الرمال.. وننادي:

- (أحمد)!.. (أحمد!..)..

فترد علينا الأشباح مئات المرات مكررة ذات المقطع..

وفجأة اختفت الآثار..!.. اختلطت بفوضى من نباتات الصبار المقتلعة وآثار أقدام أخرى كثيرة..، وإلى جوارنا كان هناك منحدر يقود إلى هوة عميقة مظلمة لم نر لها قرارًا..

قال (كريم) في تؤدة محاولًا ألا يزيد رعبنا:

- أعتقد أن ما حدث قد اتضح الآن!.....

ثم أبعد عينيه عن عيوننا المذعورة.. وأردف:

- في الصباح نحاول النزول لهذه الهوة بحثًا عنه..

لكننا عرفنا أن الأمر قد انتهى..

ولم يعد هناك ما يقال...

* * *

٩ - ثلاثة..!..

حين عدنا للمعسكر وجدنا البروفسير قادمًا من بعيد.. وما إن رآنا حتى هتف في لهفة:

- هل وجدتماه؟

لكن وجوهنا المكفهرة القاتمة قدمت له الإجابة دون تزويق...

قال (محمود) في دهشة:

- من أين أنت آت؟

- كنت أبحث عنه في الجهة الأخرى عله دار حولنا دون أن ندري..
- لكنك كنت نائمًا حين نهضنا للبحث...
- إن العجائز لا ينامون بعمق أبدًا يا بني.. لا ينامون أبدًا..

❋ ❋ ❋

وهكذا نعود للفصل الأول من قصتي والذي بدأتها به كي أوقعك في نفس الشرك الذي وقعت أنا فيه.. وأجرك جرًا إلى وسط الصحراء حيث لا مأوى ولا مهرب...

هل تذكر ما حدث؟..

البحث عن (أحمد).. العثور على سترة ممزقة وآثار أقدام مخلبية..

وأدرك الرجال أن هذا لا يعني سوى أن (العساس) قد تحرك...

ثم البحث عن الجثة.. والعثور عليها في حال لا يمكن أن تسببها الذئاب..

والمشادة بين الطوارق والبروفسير.. ثم إصراري على الرحيل.. وتراجعي عن هذا القرار...

ثم النذير الغامض الرهيب.. وانطفاء النار.. وصوت الصراخ الشنيع.. و....

هل تذكر ذلك كله؟..

إذن تعال نستكمل أحداث هذه القصة الكابوسية...

❋ ❋ ❋

لقد شعرت به....

وشعر به الجمل من تحتي...

نظرت حولي فلم أجد شيئًا.. في ضوء القمر البارد لم يكن ثمة خطر ما.. لكنه كان هناك.. كان داخلي..

كنت أعرف أنه يتبعني، وأنه يقترب، لكني لم أستطع أن أجد له أثرًا حولي..

هل هو غير مرئي؟..

لا.. ولا هو وهم.. إنه حقيقة.. لكنها حقيقة تفوق حواسي..

شرعت أركل بكعبي سنام الجمل أحثه على الهرولة.. أسرع!.. أسرع!.. لكن الحيوان لم يكن بحاجة لذلك، لأنه كان يدرك الخطر ويفهمه ويخشاه ربما أكثر مني..

فوق الرمال يعدو.. يخب.. يهرول..

ثم إنه اضطرب.. وتوقف على حين غرة..
وعلى ضوء القمر الشاحب رأيت شخصًا يقف أمامي محاولًا سد الطريق..

* * *

كان هذا هو (محمود).. عرفته من شعره الأشعث قبل أن أرى وجهه.. كان يرتجف وقد ارتسمت على وجهه علامات الرعب.. وكان يلهث:
- (محمود)!.. ماذا قد حدث؟
- لماذا عدت أنت أيها المعتوه؟!..
- لم أتحمل.. ولكن.. هل بإمكانك أن تنيخ جملًا؟.. إذن افعل!.. أريد أن أشعر بقدمي على الأرض الثابتة..

ساعدني في لهفة على النزول..، وجوار الجمل الذي جثا على أقدامه أخذ يرتجف.. ويردد:

- إنه مجنون!.. هذا البروفسير مجنون!

- لا جديد في ذلك..

وأشعلت سيجارة.. وبدأت أسمع قصته..

قال إن البروفسير استشاط غضبًا عند رحيلنا.. وطفق يدوس النيران في عصبية حتى أطفأها.. وركل المتاع حتى بعثره.. ثم انطلق يركض في الصحراء صارخًا صرخات مريعة، كأنما هناك من ينتزع لسانه حيًا...

- إذن.. كح!.. هذا هو سر الصراخ والنار... كح!.. المنطفئة..

- لقد جريت وراءه كما لم أجر في حياتي.. لكنه ضاع في الصحراء.. كأنما مسه الشيطان.. أنا لا أفهم..

ابتسمت في ثقة، ونفثت الدخان في الهواء، ثم رميت السيجارة:

- بالعكس.. لقد صار الأمر واضحًا..

- ماذا تعني؟..

جلست على الرمال جوار الجمل.. وربت بيدي على جلده الخشن:

- إن الأمر واضح.. هذا الرجل مجنون تمامًا.. والآن حاول أن تتخيل معي ما قال وفعل طيلة الرحلة..، أولًا هو مصاب بجنون العظمة مما جعله يتخيل أن أفكاره هي أمور قدرية لا تتبدل..، ثانيًا: هو مليء بالنزعات الفاشية، وكلانا لا ننسى ما فعله

حين رأي الطائرة الإيطالية المحطمة..، ثالثًا: كان هو من نزل درجات السلم.. وهو من صرخ وبدأ الهذيان عن (الشيء) في حين لم نر نحن ما يدعو للقلق..، رابعًا: لاحظت أنت - ولاحظنا جميعًا - أنه لم يكن معنا حين ذهبنا للبحث عن (أحمد).. فأين كان..؟!

قال (محمود) في حيرة:

- كان نائمًا وسمع كلامنا فذهب يبحث في ناحية أخرى...

- هذا ما قاله هو!.. ولكن أي منطق هذا؟.. عجوز يصحو ليلًا ليجد كل من معه وقد ذهبوا في جهة.. كيف تتخيل أن يذهب هو للبحث في جهة أخرى؟!.. ثم ماذا؟.. يسير وحده في الصحراء المظلمة

دون سلاح ودون أن يخشى الذئاب، أو ما هو أسوأ..
- ربما كان مفتونًا مثلما حدث لـ (أحمد)..
- إذن فكيف أفاق؟.. الواقع أنني واثق تمامًا من أن هذا الرجل يعابثنا.. إنه يعرف أسطورة (العساس) ويحاول تحقيقها حرفيًا..
- لماذا؟..
تنهدت في إرهاق.. وقلت:
- لقد قابلت الكثيرين من أمثاله، يحاولون تحقيق الأساطير بشكل متقن.. فتاة تحيى قصص المذءوبين بدافع الانتقام.. عالم يحاول إيجاد حيوانات تجارب بشرية.. طبيب يخلق ستارًا للتهريب.. قاتل يحاول إلصاق جرائمه بأسطورة إغريقية..، إن

الأسباب عديدة.. لكني أميل إلى كون هذا الرجل مخبولًا فحسب...

- إذن هو قتل (أحمد)...

- أظن هذا.. وفي الوقت الذي عدت لأوقظكم فيه..

- وكيف شوه جثته؟

- الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها.. وقد استنزف دمه بشكل ما... على أنه لم يوفق كثيرًا في استخدام أسلوب إدارة الرأس في الاتجاه العكسي. هذا الأسلوب يذكرنا بأساطير القرون الوسطى الأوروبية، أكثر مما يذكرنا بأسلوب أسطورة عربية.. ثمة عقل أوروبي وراءها...

- وأين هو الآن؟

- بالتأكيد يدبر لنا ميتة شنيعة أخرى...!
- إذن علينا أن نجده فورًا...
ثم إنني هرشت عنقي.. وأشعلت سيجارة برغم النظرة المحتجة في عينيه:
- الحق أقول لك إن الإيحاء كان قويًا.. قويًا.. حتى أنا نفسي شعرت أن هذا (الشيء) حقيقة ملموسة، وأنه آت في إثري.. لقد كدت أموت رعبًا... كح!.. كح!
- إن الجو العام يثير الخيال إلى حد غير عادي..

* * *

وهكذا شرعنا نستكشف المكان متفرقين.. كان كل منا يحمل سلاحًا.. وقد أشعلنا نارًا قرب الجمل، لنستطيع العودة إلى

مكان البدء..

في صمت أذرع منطقتي حاملًا مسدسي ومسترشدًا بضوء القمر.. عيناي تتحركان في محجريهما بجنون.. وريقي جاف كزجاجة صمغ منسية!!..

الشيء الوحيد الذي يطمئنني هو أن الظل أمامي لا خلفي.. ولهذا سأجد هذا المخبول، إذا ما باغتني من الخلف..

إنني أتذكر كل شيء.. عينيه الزرقاوين.. صراخه.. عصبيته.. وأشعر بكراهية عارمة تجاهه، لا أحب أن يخدعني أحد.. سئمت كل هؤلاء السخفاء الذين يجدون في فريسة سهلة يتلاعبون بها، ويقنعونها أن المستحيل ممكن..

- (رفعاااات)!

دوى صوت (محمود) في سكون الصحراء.. فأجفلت..
- د. (رفعاااات)!
إن الصوت آت من هناك.. فلأسرع إذن..
وهناك - في تلك البقعة الرملية الخالية - وجدت (محمود) واقفًا وظله يرتمي على الرمال طويلًا رهيبًا..
كان واقفًا وقد باعد بين ساقيه وحنى رأسه...
وعند قدميه كان هناك شيء ما.. كأنه قطعة رثة من الثياب.. لكنها لم تكن كذلك.. وإن تمنيت ذلك كثيرًا..
كانت جثة البروفسير...
جثته الممزقة وعنقه الملتوي للخلف، وعينيه الشاخصتين.. وحين نظرت إلى

الرمال وجدت ما كنت أخشاه.. آثار الأقدام المخلبية التي ألفناها تمامًا..

* * *

- لقد كنا مخطئين..

قلتها لـ (محمود) في مرارة.. وبيد مرتجفة أشعلت سيجارة أخرى، لم يعد الهواء يجد طريقًا إلى أية حويصلة في رئتي.. إنني أختنق!..

لم يرد (محمود).. فواصلت الكلام:

كان واقفًا وقد باعد بين ساقيه وحنى رأسه .. وعند قدميه كان
هناك شيء ما .. كأنه قطعة رثة من الثياب ..

- لقد عرفنا الحقيقة بعد فوات الأوان...
كح!

-..........

- (محمود)!.. قل شيئًا....

كان وجهه يكتسي بالظلام، والغموض يغلف ملامحه.. للحظة بدأ الرعب يتسرب إلى نفسي.. إلا أنه تكلم أخيرًا.. تكلم لكن كلماته زادت الأمر سوءا، لأنها خرجت متحشرجة مضعضعة بلا معنى على الإطلاق..

ثم شرع يضحك..

لقد تخلخل جهازه العصبي.. وهذا الضحك هو نوع من الأصوات التي يصدرها (رادياتور) السيارة قبل أن ينفجر.. هذه هي مشكلة الآخرين.. دائمًا ما

يكونون أكثر قوة وصلابة مني ثم - فجأة - ينهارون تمامًا، في حين أظل محتفظًا بتوازني إلى آخر لحظة..

إن من يبدأ سباق العدو بالركض السريع لا يستمر طويلًا...

ها هو ذا (محمود) يضحك.. ويضحك، وقد تساقطت خصلات شعره على وجهه:

- لقد مات الخنزير الفاشي!.. مات المجنون!.. ها ها ها!

وبدأ يصفق بكفيه.. ويعتصر بطنه... وألقى بندقيته بعيدًا..

وهنا بدأت فكرة شاحبة تغزو أفكاري.. بدأت شاحبة ثم ازدادت وضوحًا.. والآن ها هي ذي تسطع كالشمس..

ماذا لو كنت أنت يا (محمود) صاحب هذه الألعوبة..؟!..

لقد كان البروفسير مجنونًا.. لكنك أردت أن تعاقبه لأنه يمثل لك كل ما فعله الإيطاليون في أهلك بـ (فزان).. ولهذا رسمت الخطة بشكل متقن، وحاولت أن تلصق التهمة بـ (العساس)..

وكنت تملك الوقت الكافي - حين تركتكما وحدكما في الصحراء - كي تقتله وتغير معالم جثته.. ثم نبدأ البحث عنه فتناديني وتتظاهر بالجنون.. ولربما أنت لا تتظاهر.. أنت حقًا مجنون!..

وبعد هذا ستأتي ضحية جديدة لحارس الكهف.. طبيب مصري نحيل اسمه (رفعت إسماعيل).. والطوارق يجدون

الناجي الوحيد من هذه المذبحة.. وكلهم يعرفون تفسير ما حدث..

فكرة مختلطة متداخلة لكنها لم تبرح خيالي..

يجب أن أتركه.. يجب أن أفر.. لكنه سيطاردني لا محالة، وأنا لن أستطيع تقييده ولا قتله.. السبيل الوحيد هو أن آخذه معي إلى أن نلقى إحدى القوافل.

وحين نصل لمرفأ الأمان سيكون من السهل أن نعرف الحقيقة..

❋ ❋ ❋

أنا جندي!.. لقد فعلت ما أمروني به..

❋ ❋ ❋

وحين انتهت نوبة جنونه...

وحين نظر إلى وجهي أخيرًا.. وحين لمح النظرة العجيبة في عيني...

لابد أنه فهم...

وبصوت حاولت أن أجعله رهيبًا.. قلت:

-.. والآن سر أمامي ولا تتظاهر بالبراءة.. كح!.. كح!.. إنني مجنون وأنت تعلم ما يعنيه ذلك.... كح!..

وصوبت مسدسي إلى ما بين عينيه..

❋ ❋ ❋

١٠ - اثنان...!!؟

نظر لي (محمود) في برود.. وقال:

- كان ينبغي أن أعرف ذلك يا (رفعت).. إن كراهيتك للبروفسير قد فاقت توقعاتي.. إن عدم الاستلطاف ليس مبررًا كافيًا للقتل...

ابتسمت في سخرية.. وأنا أضغط على مقبض المسدس في عصبية:

- وماذا أيضًا؟..

قال وهو يبادلني البسمة الساخرة:

- لقد بدأت أشك في أمرك منذ شاهدت أسلوبك الدموي في مواجهة الذئاب.. قلت لنفسي: إن هذا الرجل يخفي قدرًا مرعبًا من السادية، ثم لاحظت أسلوبك المريع في

تدخين السجائر.. لا يوجد إنسان بكامل توازنه العصبي ويدخن كل هذا الكم..، دعك طبعًا من حقيقة أنك آخر من رأى (أحمد) على قيد الحياة.. ولعل رحيلك وعودتك أعطياك فرصة غير متوقعة للانفراد بالأستاذ..!

ابتسمت في قسوة محاولًا أن أبدو مرعبًا.. وقلت:

- أنت مخطئ تمامًا.. ولعلي أنا أيضًا مخطئ..، لكني لا أملك ترف التجربة.. إنك ستظل أسيرى حتى نجد من يخبرنا بالحقيقة.. ولا داعي أن أردد مرة أخرى أنني مجنون تمامًا..

ومضت دقائق نرمق فيها بعضنا بعيون حاقدة..

لقد بدأت لعبة الشك.. لكني أمسك بزمام المبادأة.. ولا أحب كثيرًا أن أترك له هذا الزمام.. برغم علمي أن هناك احتمالًا لا بأس به أن أكون مخطئًا..

ماذا تفعل لو كنت مكاني؟.... تهدده؟.. حسن.. هذا هو ما أفعله الآن وسأفعله دومًا..

* * *

كأن هذا سهل..!..

إن تبقى جذوة الشك المقدسة حية في قلبك حتى حين يطول الليل.. ويثقل جفناك بعد كل هذه الانفعالات ويرتخي جسدك لكنك لن تنام.. لن تنام!

لربما - إذا نمت - كانت هذه آخر مرة...

إن قضاء الليل مع شخص يبغي قتلك ليس سهلًا، حتى إذا كنت أنت من يمسك بالمسدس...

اما هو - الوغد - فقد تكور على الرمال وشرع يستمتع بنوم هادئ لذيذ ليغيظني.. إنه لا يملك شيئًا يفقده، وهو تحت رحمتي تمامًا.. لهذا نام في سلام... وتذكرت - في مرارة - عبارة (برنارد شو) الساخرة: إن أكثر الناس قلقًا في السجن هو السجان..!

لن أنام.. لن أنام...

(ماجي) يا ملاكي الصغير.. ماذا تفعلين في (انفرنسشاير) في هذه اللحظة؟.. وماذا تفعل (هويدا)؟.. شقيقتي (رئيفة) وأمي و(تابيثا)..؟.. إن (عزت) له وجه آكلي البشر، لكنه موهوب.. مثل (مختار)..

(عمر المختار) كان يتحدى (جراتزياني).. و(جراتزياني) ترك (العلمين) بعد أن ترك هناك لافتة للذكرى كتب عليها: لم تنقصنا الشجاعة.. ولكن الحظ..، الشطرنج لا يعتمد على الحظ، لكن مصاصي الدماء لا وجود لهم.. من ذكر مصاصي الدماء؟.. ما هي المناسبة؟.. لا أذكر.. لكن رسالة الدكتوراه قد أنهكتني كثيرًا.. أنهكتني لكني لن أنام.. لن أنام.. حينما قابل (العساس) أخي (رضا) لم تكن هنالك كواكب أخرى.. و.. ولن أنام.. لن أنام.. لن أنا........

....

❋ ❋ ❋

الشمس تحرقني.. ملايين البللورات تعكس ملايين الشموس في مقلتي..

إنه منتصف النهار..!.. لقد نمت.. نمت... برغم كل المقاومة وكل الإصرار، انتصرت (الفسيولوجيا) على حب الحياة.. والآن يدهشني أنني لم أزل حيًا..

لقد هرب (محمود) طبعًا، لكن مسدسي ما زال في يدي.. لقد تجنب انتزاعه من كفي كي لا أستيقظ.. وطبعًا استرد بندقيته وجمله.. إنه سفاح شريف!.. ترك لي النصف من كل شيء وقد كان يستطيع ألا يفعل.. فإما أنه مظلوم.. وإما أنه يرجئ وفاتي إلى الوقت الذي يريده

أنا أعرف أنه قريب ينتظر.. لكن أين؟...

لو كنت إنسانًا عاديًا لركبت الجمل وبدأت السير في الصحراء، باحثًا عن مخرج.. لكن هل قال لك أحدهم إنني إنسان عادي؟.. إنني لن أستطيع أن أجعل هذا الديناصور يقف على أقدامه أبدًا...:

وهذا يعني أن أمري قد انتهى..

إلا أنني لم أجد بعد مبررًا للهلع.. إن حقيقة كوني وحيدًا ضائعًا في الصحراء لم تنضج بعد في ذهني.. أعرفها لكني لا أستوعبها بما يكفي..

ولعلي في سبيل للجنون انا الآخر.. ومن يدري؟...

ولعل هذا أفضل..

❋ ❋ ❋

مشيت كثيرًا... لكني لم أر أثرًا يقودني إلى الخروج من هذا المأزق..

منذ أن تركت البروفسير في تلك الليلة، وأنا أدور في دوائر مستمرة دون أن أجهد ذهني لتذكر اتجاهي.. وبالتالي يمكن أن أكون الآن على حدود (الجزائر) أو أكون على حدود (مصر).. لكنى لن أعرف ذلك أبدًا..

وهضبة (تسيلي).. هل تبخرت نهائيًا؟..

في كل مرة أعود إلى الجمل العزيز.. وأرشف جرعات من الماء..، على حين أخذ هو يجول هنا وهناك، يداعب نباتات الصبار بشفتيه الغليظتين..

إنني في مأزق..

أما الأسوأ، فهو أنني قد بدأت أدرك ذلك أخيرًا...

*   *   *

وفي النهاية وجدت مكانًا آخر معسكرًا للـ (تبو)..

المعسكر الذي سهرت أحرسه ليلة أمس..!... ليلة أمس الأول.. النار المطفأة، وبقايا المعركة حين ثار الأستاذ وبعثر المهمات وحقائبه..

إن الكهوف قريبة جدًا من هذا الموضع.. ولكن في أي اتجاه؟..

شرعت أتفقد الرمال بحثًا عن شيء قد أكون نسيته أو يكون ذا نفع لي.. وبالفعل وجدت (البوصلة) الخاصة بالبروفسير..

وخريطتين.. وقلمًا من الرصاص.. وقطعتين من الحلوى.. وأصبعين من الديناميت.. فتحت الخريطة فوجدت شيئًا ذا أهمية..

كان البروفسير قد رسم بقلم أحمر - واعتمادًا على كلام (التبو) - خطوطًا تحدد مسار قوافلهم عبر الصحراء.. وكان هذا يعني أن أقرب موضع لهم مني يقع على مسافة خمسة كيلومترات شمالاً..

إنها لمعلومة ثمينة.. ربما تساوي حياتي ذاتها..

المشكلة الوحيدة هي أنني لو وصلت إلى هذا الطريق سيكون على أن أنتظر - إلى ما شاء الله - حتى تمر بي إحدى قوافلهم.. لأنها ليست قطارًا أو حافلة يمكن

انتظارها. بشكل منتظم..، قد أنجو اليوم أو بعد أسبوع أو بعد شهر.. أو ربما لا أنجو أبدًا..!

لكني لن أظل هنا إلى الأبد..

يجب أن أفعل شيئًا.. أي شيء..

* * *

إلى مكان الجمل عدت مسترشدًا بآثار أقدامي على الرمال..

وجذبت لجامه فأطاعني.. وجررته خلفي إلى موضع المعسكر.. ثم في اتجاه الشمال..، لم يكن لدي مفر من أن أمشي أمامه بدلًا من الركوب فوقه..

كانت مسيرتنا بطيئة لكنها منتظمة..

وقد مضت ساعتان منذ تحركنا.. وبدأ اللون الأزرق الكريه - لون الخوف - يزحف على الرمال.. سيحين المساء بعد ساعة ومعه ألاف الاحتمالات المروعة.. ولسوف تكون ليلة طويلة حقًا..

وفجأة تجمدت خطوات الجمل..

رفع عقيرته إلى أعلى، وأصدر صوت خوار عميق طويل، والزبد يتساقط من شدقيه..، كانت الصحراء عارية أمامي تسبح في بحر من الفضة..

وعلى البعد رأيت جملًا آخر يرعى وحيدًا باحثًا عن نباتات الصبار.. أنا أعرف هذا الجمل..

ووجوده هنا لا يعني سوى أن (محمود) قريب.. وأن كلينا نمشي في الاتجاه

الصحيح نحو الدرب الذي تسلكه قوافل (التبو)...!
أنت مخطئ تمامًا.. ولعلي أنا ايضًا مخطئ.. لكني لا أملك ترف التجربة..

* * *

وعلى الرمال وجدته.. في ضوء القمر وجدته...
بالطبع لم يكن واقفًا على قدميه.. ولم يكن في عداد الأحياء أساسًا..
كان قد مات.. قتل بنفس الأسلوب الجهنمي.. وجواره نفس الخطوات المخلبية المألوفة، ومشهد بشع أخر يحفر في ذاكرتي للأبد...

مرة أخرى أكتشف أنني ظلمت بريئًا.. وكان ذلك في وقت متأخر جدًا جدًا.. لقد كان المسكين يخشاني حتى الموت، في حين كنت أرتجف هلعًا منه!.. ولقد حاول الهرب مني، لكنه لم يلحق سوى بقدره.. و(العساس) كان هناك.. (العساس) الذي بدأت الآن أدرك أنه حقيقة لا مراء فيها...

(العساس) الذي ظل مئات السنين يحرس كهوف (تسيلي) كي لا يحاول أحد أن يهبط لأسفل ويعرف...

يعرف ماذا؟.. لا أدري.. ولن أدري لأنني التالي في القائمة.. إنني أنتظر دوري خارج غرفة الإعدام، حتى يفرغ الجلاد ممن سبقني.. وقد فرغ... وهو الآن يناديني كي أدخل!!..

(العساس) كان هناك..

وهو الذي أغرقنا في بحر من الشكوك والاتهامات المتبادلة، وجعل كلًا منا يبتعد عن الآخرين وحده كي يلقي جزاءه..

فقط الطوارق بحكمتهم الفطرية عرفوا هذا، وتجنبوا الخطر.. وفي المرة القادمة حين يعودون - لن يجدوا سوى ثلاث جثث مشوهة، وأسطورة جديدة يحكونها لأولادهم جوار النار ليلًا..

من يدري؟.. لربما أسعدني الحظ، وغدوت بطل أغنية بربرية جميلة، يعزفونها على (الأمزد) بعد أجيال....!

ماذا ستقول الأغنية؟.. ستقول:

لقد أنذرنا الحمقى...

لكنهم لم يصدقوا حرفًا..

لهذا كان الحارس هو صاحب الكلمة..
وشربت رمال الصحراء دماءهم...
أو أي شيء على هذه الوتيرة..
راقت لي الأغنية وشرعت أحاول نظمها وتلحينها.. أطقطق بأصابعي وأصدر نغمات بفمي.. وأرقص.... أرقص.... في ضوء القمر..
لقد جننت..!.. أعرف هذا وأحبه.. إن أهالي (بافاريا) يطلقون على المجنون كلمة (موندزوختيش) ومعناها (صريع القمر)!.. نعم.. كنت أنا قد غدوت صريع القمر.. صريع القمر.. هاهاها!..
لقد أنذرناهم..
والآن تشرب رمال الصحراء دماءهم..
تشربها.....

ترالالالالا..!!

* * *

١١ - واحد..!

والآن تأتي ساعة الحقيقة..
لم يعد هناك مجال للمزاح.. ولا أملك ترف الهستيريا.. يجب أن أرتب أفكاري..
كنت أعلم أن في متاعي أصبعين من الديناميت.. ومعي قداحة ومسدس.. صحيح أن كل هذا لا يكفي لكنه بداية..

معي جملان.. وما دمت غير قادر على ركوب أحدهما فسأستعملهما كما يستعمل خبير الاشعاعات عداد (جايجر).. إن هذه الحيوانات شديدة الحساسية، وفطرتها لا تخيب.. وحين تنتصب الشعرات في أعناقها، سأعرف أن شيئًا ما قادم في اتجاهي.. شيئًا غير صديق طبعًا...

❋ ❋ ❋

بدأت الذئاب تعوي...

لكني لم أكن على استعداد لأن أخافها.. لا وقت لدي لهذه التفاهات، ولن أضيع رصاصة واحدة على هذه الوحوش..

. لكن الحقيقة المروعة..

التي لم تفارق مخيلتي أبدًا..

هي أن الذئاب ظلت تعوي من بعيد لكنها لم تجسر على الاقتراب!..
حتى هذه الوحوش تدرك الحقيقة..

* * *

انتهت سجائري.. لقد نجوت من سرطان الرئة!..

* * *

كانت معي ثلاث زمزميات.. واحدة للبروفسير رحمه الله.. وواحدة لـ (محمود) رحمه الله.. وواحدة لي أطال الله عمري!..
إنني الآن أبدأ الزمزمية الأخيرة...

عجبًا**!**.. كنت أظن أن مخزون الماء لدينا أكثر من ذلك..
لكن الظمأ لن يضايقني كثيرًا بعد اليوم..

❋ ❋ ❋

عجيب هذا**!**.. قلت لي يا د. (رفعت) إنك مولع بأسرار ما وراء الطبيعة...

❋ ❋ ❋

هيه**!**.. ابتعد يا بن الشيطان..**!**.. اتركه..**!**

❋ ❋ ❋

ومضى الوقت...

كانت الهستيريا تتسرب إلى عقلي ببطء.. وبدأت أسلي نفسي بتخيل أنني أقدم أحد البرامج النسائية في المذياع:

- سيدتي.. اليوم أقدم لك طريقة رخيصة وفعالة للتخلص من أحد حراس الكهوف الشرسين..!، أنا لا أعرف شكله ولا حجمه لكني أؤكد لك أنك تستطيعين قهره.. باستخدام إصبعين من الديناميت، تنتظرين حتى يقرب ثم.. ثم تشعلين الفتيل وتلقينه عليه.. ثم انبطحي... لا تنسي يا سيدتي أن تنبطحي..!.. وحينئذ.. تكونين قد نجوت!.. نجوت!.. وإلى اللقاء يا سيدتي في حلقة جديدة مع وحش آخر..!

الجمل يرمقني بنظرة ثابتة حكيمة وأنا أجن تدريجيًا.. ما أحكم هذه الحيوانات

وأذكاها..!.. لكني لم أنته بعد..!..
ما زال جهازي العصبي محكمًا لكنه مرهق.. مرهق فقط..

* * *

والآن - عند منتصف الليل - جاءت اللحظة..
ها هو ذا قادم من أجلي..
في ضوء القمر أراه بوضوح تام.. وأتجاهل ذعر الجملين.. وعواء الذئاب المتزايد.. ودقات قلبي...
هل أصفه لك؟.. إن هذا من حقك.. لكنه ليس في إمكاني..
إنك تتخيله غوريلا ضخمة.. أو ذئبًا عملاقًا.. أو شيئًا يشبه (العملاق الأخضر)

الذي لم نكن نعرفه وقتها..، بل ربما تتخيله شيئًا هلاميًا.. أو كتلة من اللهب.. أو كيانًا شفافًا شبحيًا..

في الواقع لا.. أنت مخطئ..

لم يكن (العساس) يشبه أي وحش من الوحوش التي تحترم نفسها..

كان شيئًا يفوق قدرتي على التعبير.. نعم هو كيان ملموس.. لكنه لا يبدو قريبًا من أي صورة مرعبة نعرفها... إنه هو الوحش الذي لم يخترع بعد.. ولهذا لا أجد صورة أقربه لك بها..

كان مرعبًا.. وثائرًا.. ويريدني.. وهذا يكفيني....

* * *

والآن تمسك يدي بالديناميت...
من العجيب أنني لم أرتجف.. ولم أعد أستشعر ذرة خوف...
علماء الفسيولوجي يقولون إنها مادة (الإندورفين) التي يفرزها المخ في لحظات النهاية، كي يقلل من ألمها قدر الإمكان...
لكنني أسميها رحمة السماء... ورأيانا لا يتعارضان في شيء..
يجب أن أشعل الفتيل.. ولكن أين قداحتى؟.. لقد نسيت موضعها منذ انتهت سجائري.. أين؟..
آه!.. ها هي ذي.. والآن اشتعل.. اشتعل أيها الفتيل اللعين..
إنه رطب.. ولكنه سيشتعل.. أخيرًا!..

وما إن تعالت الشعلة حتى أحكمت التصويب ورميتها عليه، و...

❋ ❋ ❋

ثم انبطحي!.. لا تنسي يا سيدتي أن تنبطحي...!

❋ ❋ ❋

دوى الانفجار المروع على مسافة عشرة أمتار مني وتناثر الرمل في وجهي.. لكني كنت منهمكًا في إشعال الفتيل الثاني.. وقبل أن يزول الدخان كنت قد ألقيت إصبع الديناميت في إثر زميله..

❋ ❋ ❋

ثم انبطحي!.. لا تنسي يا سيدتي أن تنبطحي....

❋ ❋ ❋

الانفجار الثاني يهز الصحراء ويحيل الليل نهارًا..

ثم ينقشع الدخان..

وتهدأ سحابة الرمال...

وعندئذ وجدت (العساس) ما زال يتقدم نحوي بنفس البطء ونفس الثقة والتؤدة..!..، مددت يدي إلى المسدس وأنا بعد منبطح على الأرض.. وضغطت الزناد...

❋ ❋ ❋

اليوم أقدم لك طريقة رخيصة وفعالة للتخلص من أحد حراس الكهوف الشرسين..!

❋ ❋ ❋

بان!.. بان..!.. لا جدوى..!..
ثلاث رصاصات اخترقت هذا الشيء دون جدوى...
إنه منيع كالقلاع..
لقد انتهى الأمر..
لكني - على الأقل - لن أموت دون أن أنهكه جريًا بعض الوقت، حتى لا يقال

يومًا ما إنني مت كالحملان..

أدرت ظهري له وأطلقت ساقي للريح..

لكنه خلفي.. أشعر وأشم أنفاسه.. إنه يقترب.. وأنا أتعثر.. أنهض.. أسعل.. ومرة أخرى أدرك أن شراييني التاجية سوف تخذلني.. الألم الحارق.. الألم العاصر العتيد يبدأ في كتفي اليسرى، ويزحف كالكابوس إلى ذراع وإصبعي الصغرى... لم تكن حياتي سيئة بالفعل، لكني كنت أتمنى أن أموت ميتة أخرى.. ميتة أرق من هذه.. ولكن....

فجأة لاحظت أن لون الرمال يتغير...

ولاحظت أن سطحها أملس من اللازم..

إنها بقعة خالية من نباتات الصبار.. وهذا يذكرني بشيء ما..

* * *

إن سطح الرمال المتحركة يكون أكثر انتظامًا ونعومة من الرمال المحيطة به..
هكذا قال (محمود) يومًا ما..

* * *

والآن أنا أعرف ما يجب عمله..
شرعت أدور حول الحقل بحذر شديد متجنبًا تلك الرمال مريبة الشكل.. إنه عمل

لكنه خلفى .. أشعر وأشمّ أنفاسه .. إنه يقترب .. وأنا أتعثر ..

أنهض .. أسعل ..

خطر.. فالطبيعة لا تضع فوارق واضحة إلى هذا الحد.. لكني لا أخاف شيئًا.. لم أعد أخاف..

إنه يتبعني...

أريد أن أتواجد في بقعة ما بحيث تفصلني الرمال المتحركة عنه.. وعندئذ - إذا حاول أن يصل إلي - تبتلعه الأرض..

ولكنني لا أستطيع.. إنني أركض على حافة حقل الرمال وهو خلفي يسير فوق نفس خطواتي..، سيظل دائمًا بمحاذاة الخطر مثلي.. ولا سبيل لي للالتفاف إلى الجهة الأخرى..

أدرت وجهي لأراه....

وللمرة الأولى عاد الذعر الوحشي المجنون يهاجمني..

يجب أن أفر.. يجب....

لم أعد أدقق كثيرًا أين تهوى قدماي...

كلا..!.. لن أصرخ، لأن الصراخ سيزيد هلعي، حين أفهم أن هذه الصرخات هي صرخاتي أنا..

في ثانية كنت أركض.. وفي الثانية التالية كنت قد توغلت ثلاثة أو أربعة أمتار داخل حقل الرمال المتحركة..!

إن الرمال المتحركة تتحرك.. تتخلخل تحت قدمي.. إنني أغوص..

* * *

.. وليتذكر كل من يسقط في هذه الرمال المخلخلة، أن عليه ألا يحاول الصعود في حركات هستيرية تزيده غوصًا.. فقط

يحاول أن يطفو على ظهره ويسترخي تمامًا..

* * *

ملت بظهري إلى الخلف.. ولمحت قرص القمر يرمقني في شفقة..
شعرت بجسدي يتأرجح ثم يميل للخلف.. ويطفو.. ببطء ببطء..
مددت ذراعي جانبًا محاولًا - غريزيًا - أن أزيد مساحة جسدي وبالتالي يقل ضغطي على الرمال... لا بأس.. إنها طريقة لا بأس بها..
وهنا سمعت الصوت،..
هو ذا (العساس) قادم من أجلي..

ها هو ذا يخطو خطوته الأولى في بحر الرمال.. إ

إنه ينغرس.. يحاول التخلص.. ينشر الرمال حوله..

لكنه - ذلك الأحمق - لم يكن يعرف شيئًا عن قواعد النجاة من الرمال المتحركة.. ولم يكن يعرف معنى الاسترخاء..

إنه يهبط.. يهبط.. وموجات الرمال تتراقص...

إنه يثور.. ويصدر صرخات ترتج لها الصحراء..

لكنه يهبط.. ويهبط.. على بعد مترين من جسدي.... يهبط... حتى اختفي نهائيًا..

❋ ❋ ❋

وحينئذ.. تكونين قد نجوت.. نجوت!

* * *

انتهى (العساس)..
نعم.. أنا واثق من ذلك...
إنه ليس شبحًا.. إنه مجرد وحش مفزع ومنيع.. لكنه لن يستطيع الهرب من سجنه النهائي.. وهو - حتمًا - يحتاج للأكسجين مثلي...
لقد انتهى حارس الكهف..
ولن يعود أبدًا....
إلا أنني لم أنج أنا الآخر...
لقد كلفني هذا اللقاء حياتي..، وعما قريب ستلتئم الرمال من فوقي.. ولن يعود هناك أنا بعد اليوم...

لو ظللت طافيًا ساعة.. ساعتين فماذا أفعل بعد ذلك؟

كان (محمود) ينصحني بانتظار النجدة.. ولكن أية نجدة؟!.. لن يجدي الصراخ فتيلًا.. أعرف أنهم في السينما يفكون حزامهم ويلقون به ليتشبث بغصن شجرة قريبة ويبدؤون الزحف نحو الشاطئ..

لكنني لا أجد أي شيء يصلح لأقذف حزامي عليه.. ثم كيف أفك حزامي دون أن أغوص أكثر؟.. دعك بالطبع من أنني لا أرتدي حزامًا أصلًا..!.. يا له من مأزق..

❋ ❋ ❋

هل أنا أحلم...؟....

كان الواقف على حافة بحر الرمال يصيح في لهفة:

-.لا تتحرك!.. سأنقذك..

وفي ضوء القمر لمحت وجهه.. (كريم).. (كريم) رجل (التبو) الذي تركته ورفاقه منذ يوم أو أكثر.. لم أعد أذكر..ولكن كيف ومتى عاد؟..

ولماذا؟..

كان يلقي لي بشيء ما أمسكته يدي دون تفكير.. إنه حبل.. حبل.. وفي حركات واثقة ربط الحبل إلى ناقته وشرع يدفعها كي تسير.. ببطء شديد يتحرك الحيوان.. وببطء شديد ارتفع.. اقترب من الرمال الثابتة على شاطئ بحر الرمال.. إنني أنجو..!..

وهكذا وجدت نفسي راقدًا على الرمال، أرتجف وأردد كلمات لا معنى لها.. أما ذلك العظيم فقد نهض إلى ناقته، وأخذ من ركابها قربة ماء وبعض التمر.. وشرع يقدم لي الطعام والشراب بوجه صارم لا أثر فيه للحنان أو للسعادة.. أو للفخر.. وجه قد من صخر...

❋ ❋ ❋

.. وإلى اللقاء يا سيدتي في حلقة جديدة مع وحش آخر..!

❋ ❋ ❋

خاتمة..

حين عدنا إلى مخيم (التبو)، أدركت أن هؤلاء الرجال لم يتركونا..
لقد أدركوا أننا ضائعون لا محالة ؛ لذا أرسلوا خمسة منهم كي يعودوا بنا على الرغم منا، ولو اضطروا لاستعمال السلاح..
وكانت الآثار مختلطة، لكنهم لم يحتاجوا لذكاء كثير كي يفهموا ما حدث.. وعندما عثروا على جثة البروفسير.. ثم جثة (محمود)، فهموا أنني في مكان ما أواجه (العساس) وحدي.. وعرفوا - حين سمعوا

صوت الانفجارين والرصاص - أنني قرب بحر الرمال، وأنني لم أزل حيًا...
وقد كان....
كان (كريم) هو الوحيد الذي رأى ما حدث، وعرف أن الكابوس قد انتهى أخيرًا...
ولولاه....
إلا أنه لم يبد متفائلًا كثيرًا بالخلاص من حارس الكهف.. قد قال لي بطريقتهم المقتضبة الخالية من الانفعال:
- سيعود...!.
- لكنه كائن حي.. ولا يمكن أن....
أشار إلى أسفل.. وقال:
- هناك آخرون....!

الحق يقال، أنني قد همت حبًا بهؤلاء الرجال.. الذين لا يتكلمون ولكن يفعلون.. والذين يملكون من الذكاء الفطري وحكمة القرون ما يفوق تصوري.. ولكن ماذا يوجد بأسفل؟.

ما سر هذه الرسوم على جدران (تسيلي)..؟ لن أعرف أبدًا إلا إذا استجمعت شجاعتي، وحاولت العودة إلى الكهف الأخير يومًا ما، لأنزل الدرجات التي تقودني إلى.. إلى (اطلنطس)؟..

ربما.. ربما فعلت ذلك يومًا..

لكني ما زلت أؤمن بأن هناك من أسرار الكون ما يحسن بالمرء أن يدعه وشأنه....

لقد عشت أيامًا عصيبة، وبلغت حافة الجنون.. لكني لم أعرف أكثر.. وأبدًا لم

أزدد حكمة ولا فهمًا للكون...
إن هؤلاء الرجال العظام كانوا أكثر حكمة من البروفسير و(محمود) و(أحمد) و(مني).. أكثر حكمة وأكثر شجاعة..
وكان الفراق أليمًا على طريقة (التبو)..
مصافحات عديدة.. ثم الرحيل ولا شيء آخر.. فهم قوم لا يسرفون في العواطف..
رحلة عسيرة عسيرة كانت أمامي في عودتي لـ (طرابلس)...
وذكرى قاسية أخرى تتخذ مكانها في موضعها الصحيح
على رفوف ذكرياتي..
كنت بحاجة إلى الاسترخاء.. الاسترخاء..

على أنني لم أعلم - وكيف أعلم - أن هناك شيئًا مثيرًا للدهشة ينتظرني.. وأن تجربة غير عادية ستشغل تفكيري لزمن لا بأس به..

لكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة – ١٩٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم

الإيداع:

١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبس الأنفـــاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة حارس الكهف

اليوم نرى بأنفسنا حقيقة تلك الكهوف .. ستزأر العواصف الرملية .. لكننا سندخل، ستعوي الذئاب فى الظلام ... لكننا سندخل، سيتحرك حارس الكهف الرهيب في إثرنا والموت و الدم يتبعانه .. لكننا سندخـل!!

المؤلف

د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة أرض أخرى

الثمن في مصـر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ – ٢٨٣٥٥٥٤ – ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

مؤرخ يوناني عظيم.

[←2]

..(ديجافو: لفظة فرنسية تعني (شوهد من قبل

[←3]

الأول هو صاحب (عائشة) و(كنوز الملك سليمان).
والثاني هو صاحب (العالم المفقود) و(الأرض التي
..غفل عنها الزمن) وقصص (طرزان) الشهيرة

[←4]

بعد ثورة سبتمبر صار اسمها قاعدة (عقبة بن
نافع).